اقرأ [٨٤٤]

سرديات القرآن الكريم
(مدخل)

رئيس مجلس الإدارة
م. رزق عبد السميع

المشرف العام على النشر
ورئيس التحرير
إيهاب الملاح

سلسلة اقرأ
صدر العدد الأول
سنة ١٩٤٣

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكتروني بدار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة – جمهورية مصر العربية

يقطين، سعيد.
سرديات القرآن الكريم: (مدخل) / سعيد يقطين.
– القاهرة: دار المعارف، 2024.
160 ص، 16,5 سم.
تدمك 978 977 02 9530 4.
1 – القرآن – تفسير.
(أ) العنوان.
تصنيف ديوي: 227
رقم الإيداع: 33142/ 2024
رقم أمر التشغيل: 1/2024/143
رقم الكونجرس: 3 - 842143 - 01 - 2

لا يجوز استنساخ أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابي من دار المعارف.

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

اقرأ

سرديات القرآن الكريم (مدخل)

سعيد يقطين

يناير ٢٠٢٥م

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

اقرأ

إن الذين عنوا بانشاء هذه السلسلة ونشرها، لم يفكروا إلا فى شىء واحد، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها.

طه حسين

أحلام شهرزاد - العدد الأول من سلسلة اقرأ الشهرية صدر عام ١٩٤٣

دعاء

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾

(الكهف: ١٠)

مقدمة

ابتدأت علاقتي بالقرآن الكريم منذ طفولتي في الكُتَّاب الذي من خلاله تعلمت القراءة والكتابة قبل أن ألتحق بالمدرسة العمومية. كانت تستوقفني فيه عوالمه التي كنت أتدرج في محاولة فهمها، وتثيرني مفردات أعجز عن تفسيرها، وأتعجب من حروفها. أتذكر كلمات ترد في عبارات مثل: «فرَّت من قسْورة»، «ومن يوقَ شحَّ نفسه»، وتكرار «فبأي آلاء ربكما تكذبان» على طول السورة التي تعبت كثيرا في حفظها. وكان كل ذلك يثير لدي تساؤلات، ويدفعني إلى طرح أسئلة للفهم. وجاءت انشغالاتي بالأدب والثقافة وليدة هذه الخلفية القرآنية التي تكرست لدي، وبدأ يراودني حلم كتابة تحليل للقرآن الكريم منذ بداية اتصالي بالبنيوية في أواخر السبعينيات وبداية الثمانية لأني

أدركت أن طريقة تحليل النصوص في ضوئها هي التي تمكنني من الجواب عن الأسئلة التي أطرح حول النص، والإنسان، والعالم. وكان لتفكيري في اتخاذ السرديات إطارا تصوريا للنظر والعمل في تحليل الرواية والسرد العربي القديم، والانفتاح على نظريات النص الرقمي أن مهد لي الطريق نحو تحقيق حلم مرت عليه أربعة عقود، وهو الشروع في تحليل القرآن الكريم. فكان هذا المدخل بمثابة توطئة للتفكير بصوت مرتفع فيما كنت أنشغل به، ضمنا، دون الإقدام على إنجازه.

يسعى هذا المدخل ليكون تمهيدا لمحاولة تحليل القرآن الكريم من خلال بسط منطلقات تتصل به موضوعا للقراءة والتحليل، وموقفا من قراءات، واقتراحا لأسئلة يحركها هاجس الكشف والاستكشاف. لا تدعي هذه المحاولة أنها بديل عن مختلف القراءات، ولا أنها قادرة على الإجابة عن مختلف الأسئلة التي لم يطرحها المفسرون السابقون، أو طرحوا بعضها، وأجابوا عنها بكيفية مختلفة

عما نسعى إليه. فالقرآن الكريم بحر لا ساحل له. وكل من يخوض في غماره يدرك أنه، مهما تسلح بما يكفي من الأدوات، لن يحيط بعلمه، أو يلم بكل أسراره وكنوزه. وأي محاولة مهما كانت جديتها وطموحاتها تظل قاصرة عن بلوغ مرادها. وأقصى ما يمكن أن تفيد به هو أنها إذا ما أفلحت في فتح مسارات جديدة للبحث، وطرح السؤال القابل للجواب، فذاك منتهى ما تصبو إليه.

توقفت في هذا المدخل، بإيجاز، على مسائل تتعلق بالإطار النظري (السرديات)، وبالموضوع المحوري (القرآنية) كخاصية مميزة للقرآن الكريم، والتي حاولت تعيين أهم مواصفاتها، من خلال تناول قضايا قراءة القرآن وكتابته، وتحديد زمنيته انطلاقا من المادة الحكائية (القصة)، وطريقة تقديمها (الخطاب)، وعلاقة القرآن الكريم (النص) بذاته (الميتانص)، وتفاعله مع غيره (التفاعل النصي). إن هذه القضايا، والتي نعد أنواع الخطاب القرآني (نظرية الكلام القرآني) جزءا منها ليست

سوى مفاتيح عامة جدا لتحليل القرآن الكريم من خلال مشروع نرمي إلى العمل على تحقيقه في كتابين إن شاء الله. يتناول أولهما «تحليل النص القرآني»، والثاني «تحليل الخطاب القرآني»، والكتابان معا تؤطرهما «سرديات القرآن الكريم»، والله ولي التوفيق.

١ـ السرديات

سرديات القرآن الكريم:

قد يتساءل البعض: ماذا يمكن للسرديات أن تقدم في دراسة القرآن الكريم؟ وهل يمكنها أن تضيف شيئا جديدا بالمقارنة مع مختلف الدراسات القرآنية التي أنجزت قديما أو حديثا، وبمختلف المناهج والمقاربات، سواء من لدن المسلمين أو غيرهم من الدارسين الأجانب من ملل ونحل لا حصر لها؟

لا شك في أن القرآن الكريم نص مختلف عن غيره من النصوص التي أنتجها الإنسان، بما تدل عليه كلمة اختلاف من معان. إنه أساس الحضارة الإسلامية ومرتكزها الجوهري. وبسبب خصوصيته قدمت تلك الحضارة مساهمة كبرى في تاريخ البشرية. إنه النص الذي مكن العرب المسلمين من تجاوز حدود فضائهم الجغرافي، ونقلهم من القبيلة إلى الدولة، ومن المجتمع

الـذي تهيمن فيه الشـفاهة إلى مجتمع تسـود فيـه الكتابة. كـما أنه النـص الذي يجله المسـلمون في مشـارق الأرض ومغاربهـا، ويولونـه قيمـة خاصـة في حياتهـم الدينيـة والدنيويـة، ويقرؤونه آنـاء الليل وأطـراف النهار. قد لا نتمكـن من حصر مختلف ما يتميز بـه هذا النص، منذ أن ظهـر إلى الوجـود، بالقيـاس إلى نصوص أخـرى أنتجها المسـلمون أو غيرهم من الأمم والشعوب في كل التاريخ البشري.

كان الشـعر العـربي قبـل الإسـلام يحظـى بمكانة في النفس العربية، جعلته أشـبه بـ«المقدس» في حياتهم. لكن انتشـار القرآن بينهم جعلهم يزيحون الشـعر من مكانته، وإن لم يتخلـوا عنـه. لقـد أحلـوا القـرآن موقعـا متميزا، فحفظته الذاكـرة الجماعية، وعملت على نقله إلى الكتابة. ومـا يـزال، إلى اليوم، وسـيظل يحفظ هذا النـص بكامله عـن ظهـر قلب من قبـل مختلـف الأجيـال العمرية. ولا يتأتـى هذا إلا للقـرآن الكريم. أنزله العرب والمسـلمون

مكانة خاصة من الاهتمام والدراسة فأوجدوا له مختلف العلوم التي تخصص فيها ما لا يحصى من المنشغلين بتتبع جزئياته وتفاصيله على مر العصور، بل وصل الحد إلى إحصاء كلماته ومفرداته. لقد عدَّد الزركشي علوم القرآن وانتهى إلى ٤٧ علما، بينما السيوطي أوصلها إلى ٨٠ علما. وكل علم من هذه العلوم انشغل به الدارسون وفق اتجاهات وطرائق متعددة. ولما كانت بعض تلك العلوم قد اكتملت نهائيا بسبب كونها قد انتهت إلى تقديم كل ما يمكن تقديمه بصدد هذا النص (الدراسات الإحصائية مثلا)، نجد علوما أخرى ما تزال وستظل مفتوحة على الاجتهاد والاستكشاف، وأخرى جديدة ظهرت مع تطور العلوم الحديثة، ولا شك أن أخريات ستكون قيد التشكل.

لقد تعددت قراءات النص القرآني في مختلف العصور والأزمنة والأمكنة، وفي كل عصر يقرأ في ضوء المعارف والعلوم الجديدة، وسياق التطورات التي تعرفها حاجات

الإنسان ومقاصده، وفي الوقت نفسه في نطاق الصراعات والخلافات السياسية والثقافية. لقد انشغل بالقرآن الكريم المؤمنون والملحدون، وتباينت طرق شرحه وتفسيره وتأويله وفق اجتهادات تسعى إلى فهمه وتثمينه أو تبخسيه والتنقيص منه. فكان المؤيدون والمعارضون والمحايدون. نجد من صعَّده إلى درجة الحديث عن إعجازه وتعاليه عن غيره مما أنتج من نصوص دينية أو غيرها. كما نجد من يشكك في ذلك ويعتبره نصا عاديا بل لا يخلو من أخطاء لغوية وأسلوبية. تعرض هذا النص قديما للتفسير والتأويل والتأول. فأقدم على ذلك أرباب الملل والنحل والطوائف الدينية المختلفة سنية كانت أو شيعية أو باطنية، وغيرها. كما انبرى له المنطلقون من العقل أو النفس أو الهوى. دافع بعضهم عن التأويل ورفضه بعضهم الآخر. وكل يسعى اعتماد مقاربات تتصل بالمجالات المعرفية السائدة في عصره. درسه اللغويون والنحويون ونقاد الأدب والفلاسفة

والصوفية، والعلماء في مختلف الاختصاصات، حتى صار بإمكاننا الحديث عن «المكتبة القرآنية» التي تحتوي آلاف المجلدات الخاصة بدراسة القرآن الكريم. ناهيك عن الترجمات إلى كل اللغات التي يمكن عدّها بدورها نوعا من القراءات.

لم يتوقف الاهتمام بالقرآن الكريم في العصر الحديث. وكان للاستشراق دور السبق في الانطلاق من العلوم الحديثة، والاستفادة من العلوم التي انشغلت بالكتاب المقدس، في تناول النص القرآني. وكان للبحث في تاريخه وتشكله وتدوينه النصيب الأوفى. وطرحت قضايا حول مصادره القديمة، وهل هو منزَّل أو مؤلف؟ وهل ما يوجد بين أيدينا تام أو ناقص؟ وما شاكل هذا من الأسئلة التي رد عليها الدارسون المسلمون بطرائق ووجهات لا حصر لها. وفي وقتنا الراهن ما تزال الدراسات تظهر بين الفينة والأخرى وبمختلف اللغات مؤيدة أو معارضة أو مشككة، وهي تستفيد من العلوم الحقة أو الاجتماعية

والإنسانية، أو من اللسانيات والسيميائيات وغيرها من العلوم الجديدة.

تغتني المكتبة القرآنية باطراد بدراسات يعمل بعضها على قراءته وفق ترتيب القرآن الكريم في المصحف أو بحسب نزوله. كما نجد دراسات تعني بالأحكام أو بالقصص، وأخرى تعمل على تقديم قراءات جزئية لسور أو آيات، أو تهتم بموضوعات معينة، وبمختلف المقاربات والمناهج سواء كانت أسلوبية أو فنية أو تاريخية أو إيديولوجي، أو مقارنة.

ماذا يمكن أن تقدم السرديات، باعتبارها نظرية أو علما للسرد في دراسة القرآن الكريم، وبماذا يمكنها ان تتميز عن غيرها، وهي علم ظهر حديثا لدراسة السرد، وليس لكل النصوص؟ صحيح في القرآن قصص، ويمكن للسرديات أن تعنى بالقصص القرآني، ولكن أن نتحدث عن سرديات للقرآن الكريم فهذا تعميم يتجاوز حدود الاختصاص الذي يمكنه أن يقتصر على ما هو

سردي في القرآن الكريم فقط. لكن وجهة نظرنا السردية تتعدى هذا البعد، وتسعى إلى توسيع مجال بحثها فيه، وفق المنطلقات التي نحددها على النحو التالي:

١- **أسئلة الدراسة:** ننطلق من كون القرآن الكريم في حد ذاته «قصة» تتأطر في نطاق زمني يتحدد بين بداية (الخلق)، ونهاية (البعث). وهذه القصة نتعامل معها من خلال الجواب عن سؤال: (ماذا تقدم لنا)؟ من جهة. ومن جهة ثانية (كيف تقدمها؟)، ويتحقق الجواب عن هذا السؤال من خلال تحليل «الخطاب»، وما يتضمنه من أحداث وأقوال وخطابات متعددة الأنواع والأنماط. وتبعا لذلك تجد السرديات في دراسة «أنواع الخطاب» القرآني، ومن بينها «الخطاب السردي»، ما يعطيها شرعية الإحاطة، من جهة ثالثة، بمختلف جوانب «النص» القرآني، في ذاته، وفي علاقته بغيره من النصوص، جوابا على سؤال: لماذا؟ للوقوف على مقاصد النص وأبعاده الدلالية المختلفة.

٢ - **القرآنية**: تبعا لذلك لا تركز السرديات التي نشتغل بها على «سردية القرآن الكريم»، وهي الموضوع المناسب لدراستها، بسبب خصوصياتها، ولكنها تحدد موضوع قراءتها له فيما نسميه «القرآنية» باعتبارها الخاصية المميزة التي نستجمعها في القصة والخطاب والنص، وتعطي لسرديته طابعا مختلفا عن أي سردية يتضمنها أي نص كيفما كان جنسه أو نوعه، لتكون مدخلا وموضوعا للقراءة يختلف عن القراءات السابقة، مؤملين وصولها إلى فتح المجال أمام قراءات جديدة.

القرآنية

سألني مرة الزميل الباحث المرحوم إبراهيم الحجري في حوار أجراه معي لمجلة نزوى عن أسطورتي الشخصية بعد أن اطلع على بعض الدراسات التي جعلتها تدور حول هذا المفهوم في السرد الغربي، فقلت له: دراسة القرآن الكريم. لقد تولدت لدي هذه الفكرة منذ بداية الثمانينيات عندما بدأت أشتغل بالسرديات. وكان لزاما تأجيل تحقيق هذه الفكرة بسبب الانهماك في تطوير السرديات نظريا وتطبيقيا. ومنذ أربعين سنة، وأنا أشتغل بالسرد الحديث والقديم، عربيا وأجنبيا، ظل اطلاعي على ما يكتب حول القرآن الكريم من قبل العرب المسلمين، والأجانب متواصلا، وفي الوقت نفسه كانت سماعاتي وقراءاتي لهذا النص مستمرة. وفي كل مرة كانت تظهر لي أشياء جديدة، فأدونها طورا، وتارة أتركها تختمر في ذهني.

لا يمكن لأحد أن يزعم الاطلاع على كل ما كتب عن القرآن الكريم. لكن توفر النصوص مع المكتبات الإلكترونية جعلني حريصا على تتبع أغلب ما كتب عنه، وتبين لي أنه يمكننا استجماع أغلب ما كتب عنه في اتجاهين كبيرين يضم كل منهما اتجاهات متعددة. الاتجاه الأول داخلي يسعى إلى الاشتغال بشرح القرآن وتفسيره وتأويله. والاتجاه الثاني خارجي يركز على ما يحيط بالنص، وظروف تشكله وتدوينه، ومقارنته بغيره من النصوص الدينية. ساهم العرب المسلمون قديما وحديثا بالقراءة الأولى بهدف تقريبه من المتلقين، ويحذوهم في ذلك هاجس فهم لغته ومعانيه. أما القراءة الثانية فأغلب ممارسيها من المستشرقين ومن يسير على منوالهم من العرب، وكلهم يسعى إلى نزع القدسية عنه، والتشكيك فيما يسلم به المسلمون بخصوصه. اعتمد أصحاب الاتجاه الأول على العلوم العربية القديمة، وعلى رأسها اللغة والبلاغة. أما الاتجاه الثاني فاعتمدت فيه العلوم

الاجتماعية والإنسانية والتاريخية. وكانت الفيلولوجيا وعلم الأديان المقارن على رأس تلك العلوم.

تختلف القراءة السردية التي نروم الاشتغال بها على النص القرآني في كونها تنطلق من النص في ذاته بهدف فهمه عبر تحليله من الداخل، ولا تهتم بالدرجة الأولى بما هو خارج عنه، سواء تعلق بالسياق، أو أسباب النزول التي يتم اللجوء إليها عادة لممارسة التفسير أو التأويل. لا يمكن أن نتحدث عن التفسير، أو التأويل بدون الفهم. وهذا الفهم يجب أن يتأتى لنا من داخل النص لا خارجه. وننطلق في تأكيد هذا المسعى من أن هناك ما نسميه «السياق الداخلي» للنص القرآني.

كما أن هذه القراءة السردية لا تهمها كل الآراء التي تنزع عنه نصيته بدعاوى فيلولوجية أو تاريخية لأنها لسبب بسيط لا تقرأ النص، ولكنها تظل «تحوم» حوله، وكل ما تقدمه بصدده يظل عبارة عن آراء لها درجة قليلة جدا من المصداقية لأنها ليست سوى تجميع مواد

تاريخية ومحاولة تلفيقها لتأكيد أفكار مسبقة. إن ما يهمنا هو النص المتداول والمقروء الذي يفرض علينا ضرورة تحديد موضوع دراسته بدقة. وما خلا ذلك من محاولات لصناعة نص آخر، فيتطلب قراءة استكشافية أخرى؟ أما القراءات الداخلية فكانت تتعامل مع النص بطريقة تجزيئية وخطية. وحتى القراءات التي ركزت على سور بعينها ظلت بدورها تجزيئية تروم الوقوف على السورة دون وضعها في نطاق النص في كليته وشموليته.

إن القراءات الخارجية والداخلية التي اهتمت بالقرآن الكريم، اعتمدت الشرح أو التفسير، أو التأويل أو التأول. ونحن نروم التحليل. وليس التحليل، إجمالا، سوى: الإجراء الذي يتخذه الباحث العالم لاستكشاف البنيات المكونة لمادة ما بقصد تحديد محتواها، والنظر، بعد ذلك، في العلاقات بين مختلف مكوناتها.

تختلف السرديات، كما أتصورها، في قراءتها للقرآن الكريم عن غيرها، بكونها تسعى إلى ممارسة التحليل

المحايث. وحين نقول التحليل نفترض أننا أمام بنية كبرى تتضمن بنيات صغرى، وبينها جميعا علاقات علينا أن نمسك بها، وننظر في مختلف الإجراءات التي تضبطها سواء على المستوى التركيبي أو الدلالي. ولممارسة «التحليل» لا بد لنا من تحديد «الموضوع» الذي ننطلق منه.

بعد إعمال النظر الطويل انتهيت إلى اعتبار ما أسميه «القرآنية» الموضوع الذي يمكنني الانطلاق منه والبحث فيه. وأقصد به «الخصوصية» النصية التي تعطيه صفته المميزة باعتباره قصة وخطابا ونصا يختلف بها عن غيره من النصوص التي أنتجت قديما وحديثا. يمكن لمتسائل أن يقول إن موضوع السرديات في كل تاريخها هو البحث في «السردية» التي يتميز بها الخطاب السردي، أيا كان نوعه، عن غيره من النصوص. وتلاؤما مع المقصود من سرديات القرآن الكريم ينبغي أن يكون الموضوع: «سردية» القرآن الكريم. اعتراض وجيه. ولا لأحد أن ينكر سردية القرآن الكريم التي أحددها من

خـلال بعدين: عـام وخاص. أمـا العام فنجـده في كون القرآن الكريم يقدم لنا «قصة» الإنسان باعتباره خليفة في الأرض. وتتحدد هذه السردية، أفقيا، من خلال الأفعال السرديـة التـي تتأطـر عـلى محـور دلالي يقـع بـين الخلـق والبعث. أما السردية الخاصة فنجدها فيما يتضمنه النص عموديا من قصص الأنبياء، وأخبار، وضرب الأمثال...

إن السرديتـين الأفقيـة والعموديـة تتقدمـان إلينا من خـلال نـص يتعالى على الأجنـاس الكلاميـة التي عرفها العـرب قبـل نزولـه. فهو ليـس شـعرا، ولا خطابة، ولا سـجع كهـان. ولا حتى فيما بعـد، من خـلال الأجناس والأنواع التي مارسـوها إلى اليوم. هذه الخاصية الجنسية المتعالية تجعله يضم أنواعا متعددة يحتل فيها السرد مكانة متميـزة. لذلـك نعتبر «القرآنيـة» ميزة شـاملة يختلف بها عن غـيره من النصـوص، وهي تتجـلى في بنياته الكبرى وعناصرهـا والعلاقـات التي تربـط بينها. وهنـا يتحدد لدينا موضوع سرديات القرآن الكريم.

مميزات «القرآنية»

نعتبر «القرآنية» الميزة الشاملة والكلية التي يتميز بها القرآن، وهي مكمن خصوصيته التي سنجدها تتحقق، بصور جزئية، في مختلف الأنواع التي يتضمنها. تتجلى لنا هذه الخصوصية في عدة مقومات يختلف بها عن غيره من النصوص التي أنتجها العرب قبل نزوله أو بعده. تتحدد هذه القرآنية مما يلي:

١- **التعالي النصي:** إنه متعال على كل الأجناس والأنواع يعلو عليها جميعا، وإن كان يتضمن بعض عناصرها سواء كانت تتصل بجمالية التعبير أو محتواه الدلالي والتداولي. وحضور بعض تلك المقومات التعبيرية لا تجعله قابلا لأن يؤطر ضمنها، أو يصنف في إحدى خاناتها. فالسجع والوزن، مثلا، وكل المحسنات والوجوه البلاغية الموظفة في اللسان العربي متضمنة في

القرآن الكريم، باعتباره أولا، وقبل كل شيء، «نصا لغويا»، ولا يمكن قراءتها إلا في ضوء خصوصية التعبير القرآني ومقاصده. إنها جزء من بنيته الكلية التي تستوعب بنيات متعددة لكل منها خصوصيتها الذاتية. ولا يمكن تأكيد ذلك إلا بالوقوف على نظرية لأنواع الكلام القرآني، وما يتميز به بعضها عن غيره. وهذا لوحده يمكن أن يشكل مبحثا خاصا في ذاته. فالسجع القرآني، مثلا، سواء اعتبرناه سجعا يرفضه البعض، أو فاصلة يقبلها آخر، يختلف عن الطريقة التي وظف بها في الخطاب العربي، (من سجع الكهان باعتباره جنسا كلاميا، إلى السجع باعتباره أسلوبا جماليا) لا يمكننا التعاطي معه إلا من خلال النص في كليته، وبما يختلف به عن غيره.

٢- **اللاخطية:** إلى جانب هذه الخاصية الجنسية المتعالية التي يتميز بها القرآن الكريم، تتحقق القرآنية من خلال كون النص القرآني غير خطي على مستوى بنائه. فلا

يمكننا قراءته أفقيا من البداية إلى النهاية كما نقرأ القصيدة أو القصة، أو أي نص، لتحصيل المعنى العام الذي يرمي إليه. لقد بدأنا بتعلم القرآن الكريم في الكتاب من خلال السور القصار، وتدرجنا منها (من آخر الكتاب إلى سورة البقرة) لنكون قد أتينا على ختمه. ثم نبدأ في قراءته من سورة البقرة إلى الناس. وهكذا كنا في الجامع نقرأ كل حزب بعد المغرب والفجر لنختمه من أوله إلى آخره خلال شهر. إن اللاخطية تبدو لنا في إمكان قراءة السورة أو مجموعة من الآيات بدون إخضاعها لأي ترتيب في المصحف خطيا. ولعل القراءة في الصلوات، وفي مناسبات الفرح والحزن دالة على ذلك. وكل ذلك يبين لنا أن المراد من قراءته يتحقق من خلال السورة أو الآية، أو مجموع آيات. وفي ذلك تأكيد أن كل بنياته الجزئية أو الخاصة جزء من البنية الكبرى، وكل منها يؤدي، منفصلا أو متصلا، الرسالة الكبرى التي يعمل القرآن الكريم على تبليغها.

تتأكد لدينا هذه اللاخطية في كون القرآن الكريم نزل منجما ومتفرقا خلال ثلاث وعشرين سنة، ولم يجمع في «كتاب» (المصحف) إلا لاحقا. ولقد كان المسلمون يتلون منه ما يتنزل في حقب مختلفة، وأمكنة محددة (المكي والمدني). ويجدون في كل ما يستجد منه تعبيرا عن المحتوى نفسه، رغم تباين الآيات (المحكم والمتشابه) وأزمنتها وسياقاتها. وتبعا لذلك نرى أن القرآن الكريم عبارة عن «شذرات» بينها «روابط» يؤدي كل منها إلى غيره مما يضمن للنص انسجام عناصره، واتساقها، وترابطها. ففي كل آية من القرآن الكريم نجد لها «صلة» تربطها بغيرها من الآيات. وهذه الخاصية لا نجدها في أي من النصوص. أسمي هذه الصلات الداخلية بين الآيات بـ «الائتلاف» بحثا عن مصطلح آخر، تأكيدا لقوله تعالى في حديثه عن القرآن الكريم: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢). كل النصوص مبنية على «الاختلاف» ليس بمعناه

الدلالي فقط، ولكن أيضا بالمعنى الذي طرحه دوسوسير وهو يؤكد أن «اللغة مبنية على الاختلاف». ولتدقيق هذا المعنى نمثل لذلك بالعمل السردي الذي يبنى على محور دلالي ننتقل فيه من محور دلالي أول إلى أخير مختلف عنه كلية.

٣- تعدد القراءات: لقد نجم عن اللاخطية تعدد قراءاته (تلاوة وتفسيرا)، والتي تذهب من القراءة التدبرية والتعبدية إلى القراءة المستكشفة لما يؤطر الحياة العامة للمسلمين (العقائد، العبادات، المعاملات) في ضوء ما تتميز به الآيات عن غيرها، وهي تترابط معها في الوقت نفسه. هذا علاوة على كون القراءات السبع أو العشر، والتي يمكن أن تكون فردية أو جماعية، سرية أو جهرية، تلاوة أو تجويدا أو ترتيلا، جزئية لسورة بعينها، أو كلية للقرآن كله.

من التعالي الجنسي إلى تعدد القراءات مرورا باللاخطية نفترض أن تحليل القرآن الكريم يتيح إمكانات

متعـددة تختلف باختلاف المقاصـد والإجراءات. لقد تم التركيز أساسـا على شرح القرآن وتفسـيره وتأويله خطيا وفـق ترتيبه في المصحف من سـورة الفاتحة إلى الناس، أو بحسـب النـزول، أو الموضوعات، وغيرها. غـير أننا في مرمانا تحليـل القرآنية نذهب مذهبا آخر، نعتبره في ضوء الخصوصيـة القرآنية كما حاولنا تجسـيدها من خلال هذه الخصائـص الثلاث، (وهنـاك غيرها سـنتوقف عليها في دراسـات موسـعة)، بنية كبرى، تتضمن بنيات صغرى، وبينهـا علاقـات وروابط. وعلينـا البدء أولا بالكشـف عـن تلك البنيـة الكـبرى، أو الوظيفة المركزيـة التي بني عليها القرآن الكريم، أو «الدعوى المركزية» للنص، (كما سـميتها في قال الراوي) لننتقل بعد ذلك إلى استكشـاف البنيات الصغرى، أو الوظائف الأساسية التي تترابط مع غيرها، وبذلك نسـتكمل كل ما يتصل بالقرآنية في ذاتها، كما تتحقق من خلال: القصة، والخطاب والنص في كليته وشموليته.

يمكننا اختزال تلك البنية الكبرى في جملة واحدة، أو آية مركزية عليها مدار النص بكامله، ونجدها تحضر بأشكال وصيغ متعددة في كل سورة أو آية من القرآن الكريم. تقول تلك الآية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات ٥٦). ففعل الخلق مركزي لأنه الحدث الذي ستتولد عنه كل الأحداث اللاحقة. وفعل العبادة هو الفعل المرتبط بالخلق في علاقته بالخالق وكل المخلوقات، وبالأفعال التي تتحدد من خلالها مصائر المخلوقات في الزمن الكائن (الدنيا)، والزمن الآخر (الآخرة). كان بإمكاني اختيار بنية أخرى، لكن رؤيتي السردية جعلتني أطمئن إلى هذه البنية في بعدها السردي (قصة الخلق وما يتولد عنها). إنها الجوهر الذي تبنى عليه «القرآنية» في شموليتها، وهي نفسها التي سنعتمدها عندما نحدد بناء النص القرآني، ومعماريته، وبؤرته التي يبنى عليها.

إن القرآنية وفق البنية الكبرى التي يمكننا اختزالها من خلالها تتجسد من خلال تصورنا السردي، من خلال القصة، أولا، وهو ما سنوضحه في النقطة التالية حول «الزمنية القرآنية»، وعبر الخطاب باعتباره بنية تركيبية، والنص كبنية دلالية، كما اشتغلت بهما في تحليل الخطاب الروائي، وانفتاح النص الروائي (١٩٨٩). وبما أن البنية النصية القرآنية، كما أتصورها الأكثر إثارة للنقاش بين المشتغلين بالقرآن الكريم قديما وحديثا بالقياس إلى البنية الخطابية، سأبدأ بها، في هذا المدخل (على أن أقوم بتحليلها في الجزء الأول من هذا المشروع)، وأعود إليها بعد تحليل الخطاب القرآني لأكشف أولا عن مميزات بنية النص القرآني من خلال ثنائية مزدوجة.

٤- النص والميتا نص: يتمفصل القرآن الكريم في ضوء القرآنية في آن واحد إلى «نص» و«ميتا نص» مترابطين، ومتآلفين. إن القرآن الكريم، من جهة، «نص» يسعى إلى تقديم رؤية عامة للعالم، ودعوة خاصة للإنسان في ذاته،

وفي مجمل علاقاته. وهو في الوقت نفسه «ميتا نص» لأنه يتخذ موقفا من كل النصوص السابقة أو المعاصرة سواء كانت ذات طبيعة دينية أو غيرها عبر تفاعله النصي معها، إما من خلال دعمها: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾، (الأعلى: ١٨)، أو دحضها: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ (آل عمران: ١٩). كما أنه من جهة ثانية، يتشكل في ضوء النصية والميتا نصية السابقة، «نصا» يؤسس ذاتيته وخصوصيته بتوجهه إلى المتلقي بقصد تغيير رؤيته إلى العالم، وفي الوقت نفسه يتحدث عن نفسه (ميتا نص)، من خلال الكشف عن مميزاته وكيفية التعامل معه للاستفادة منه.

ليس القرآن الكريم فقط نصا للقراءة ولكنه أيضا دليل إليها. وفي هذه العلاقة بين «النص» و«الميتا نص» تتحقق أقصى درجات القرآنية في خصوصيتها.

تتحقق كل هذه المميزات في القرآن الكريم بصفة كلية وعامة. أما في غيره من النصوص فتحضر بكيفية

جزئيـة وخاصة. وهذا ما يعطي للقرآنية صفة التفرد عن باقي الموضوعات التي تتميز بها النصوص، والتي يمكن أن تتخذ منطلقا لدراستها والبحث فيها.

الزمنية القرآنية

كنت وأنا صغير، تستوقفني بعض الآيات المتصلة بالزمن، مثل: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ (العنكبوت: ١٤)، فأتعجب كيف يعيش شخص كل هذا العمر. وما كان يذهلني أكثر: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (السجدة: ٥). وقوله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (المعارج: ٤). كان كل ذلك يزيد من حيرتي، فأبدأ أقارن زمان يومنا، فلا أكاد أتحمل المقارنة، ويسرح بي الخيال؟ أما ما كان يصيبني، وما يزال، بحيرة لا نهاية لها فهو القول بالخلود: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ (البقرة: ١٦٢).

الزمنية تجلٍّ لتصور للزمن كما يتحقق في القصة والخطاب والنص. وهي تتشكل في مختلف النصوص بصور متعددة. لكن القرآن الكريم يقدمها لنا بصورة مختلفة. فهي تبدأ مع الخلق وتمتد إلى الخلود. بداية محددة، ومستقبل لا نهائي. وهي تتجلى في الآية الكريمة: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة: ٢٨). إنها صورة لتعاقب الموت والحياة لتنتهي في حياة مفتوحة على اللانهائي. ويمكننا اختزال هذه الزمنية القرآنية في مفهومين مركزيين من القرآن الكريم نفسه، هما الغيب والشهادة. ويفرض علينا تحليلها النظر إليها من خلال محورين: أفقي وعمودي. المحور الأفقي خطي يبدأ مع حياة يعقبها موت، فحياة أخرى. وهو يقع في عالمين متعاقبين: الدنيا والآخرة. يتصل الأول بعالم الشهادة، والثاني بالغيب.

أما المحور العمودي، فنقسمه إلى ثلاثة أقسام: يرتبط الأول بعالم الغيب وقد غدا متصلا بماض سحيق (قصة الخلق، وقصص الأنبياء والرسل والأمم والشعوب الغابرة). أما الثاني، فبعالم الشهادة الذي يتحدد:

أولا: من خلال قصة بعث الرسول ﷺ، وما جرى له مع من بعثه الله إليهم من وثنيين وأهل كتاب في حياته.

وثانيا: من خلال ما يقع في الزمان بعد موته إلى حين قيام الساعة، وما يظهر من أشراطها، وهو ما كان يدخله المسلمون مفسرين ومؤرخين في نطاق الملاحم والفتن. أما القسم الثالث فعودة مرة أخرى إلى عالم الغيب مع نهاية العالم الدنيوي، والبعث.

اعتبرنا القسم الأول داخلا في نطاق عالم الغيب من خلال سرد أخبار الأمم السالفة على الرسول ﷺ: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٤٤)، ونجد هذا أيضا في سورتي هود: ٤٩،

ويوسف: ١٠٢. ما يدخل هنا في عالم الغيب هو ما يعمل علماء الآثار والتاريخ على استكشافه وتخمين ما وقع فيه من أحداث ووقائع. أما ما يخص قصة البعث، فقد دونه جامعو السيرة النبوية والمؤرخون والمفسرون. وما سيجري في المستقبل يدخل بدوره في عالم الغيب. ولعل ما اهتم به المؤرخون، وحاولوا تقديم مؤشرات عنه لنهاية العالم الدنيوي (قيام الساعة)، فنجده مستمدا من النصية القرآنية، وهي تؤكد تلك النهاية: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾. (محمد: ١٨).

إذا كان المحور الأفقي خطيا، فإن المحور العمودي دائري. فكل (القصة) المادة الحكائية المتصلة بخلق آدم، والنزول إلى الأرض، وتعاقب الأنبياء والرسل، فليس سوى «قصة واحدة» تتواتر أحداثها على نسق واحد: بعث أنبياء ورسل لهداية الناس وتوحيد رؤيتهم، واختلافهم وانقسامهم إلى مؤمنين وكافرين. وإن

اختلفت المادة الحكائية حسب الأمم والشعوب والرسل والأنبياء فإننا نجد أنفسنا بصدد التواتر السردي، على الصورة التي حلله بها جيرار جنيت (١٩٧٢)، وإن ضبطنا صورا أخرى مختلفة سنفصلها لاحقا. لذلك يمكننا استخلاص أن المادة الحكائية واحدة، لكن الخطابات التي تقدم إلينا من خلالها متعددة. ولما كانت القصة الواحدة تتقدم إلينا من خلال شذرات متفرقة في عدة سور (قصة موسى مثلا)، نتبين أن كل بنية نصية خاصة تتضمن خطابا خاصا بها، وإن كانت القصة مشتركة. وهذه واحدة من بين خصائص القرآنية التي دفعتنا إلى اعتبار النص متعاليا على الأجناس والأنواع.

إن قصة الرسول ﷺ مع قومه ليست سوى تأكيد لقصص كل الأنبياء الرسل مع أقوامهم (البعد الدائري). ولهذا السبب يزخر القرآن الكريم، من خلال التواتر الزمني، بما يؤكد هذه النصية والزمنية القرآنيتين. ومن هنا تأتي أهمية سرد وقائع عالم الغيب الذي تحقق

في الماضي: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (هود: ١٢٠). وليست هذه القصص، أيضا، سوى دعم لعلاقة الرسول بغيره من الرسل والأنبياء الذين بعثوا قبله، وما أنزل عليه تصديقا لهم. ونتبين من خلال ذلك أن قصة عالم الغيب في الماضي، أو في المستقبل ليست سوى قصة عالم الشهادة، وما يمكن أن يتولد عنه مع الزمن في ضوء الدعوى النصية الكبرى التي اختزلنا من خلالها القرآنية.

تهدف الزمنية القرآنية إلى بلورة معنى للزمن الإنساني لتحقيق إنسانيته الموحدة له باعتباره إنسانا. ولا يتحقق ذلك، وفق النص القرآني، إلا بربطه بثنائية: الخلق والعبادة لأنها، من جهة، عماد النص، ومحوره، وهي التي تعطي للزمن كامل أبعاده ودلالاته، من جهة أخرى.

عندما نقارن بين زمن الشهادة وزمن الغيب نجد الزمن الأول محدودا وقصيرا: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ

﴿ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ (الروم: ٥٥). بينما نلفي الثاني لا نهائيا. إن الزمنية القرآنية تدفع في اتجاه حث الإنسان على التفكير والاختيار في «واقعه» الزمني، هنا والآن، وفي مصيره يوم القيامة، وهو يعيش زمني الشهادة والغيب، وأن عليه أن يعي جيدا خصوصية هذه الزمنية ليجعل حياته في الدنيا متلائمة مع حياته في الآخرة.

٢ـ القراءة

كلام الله.. قول النبي في القرآن الكريم:

أميز بين الكلام والقول. فكل كلام يتضمن أقوالا وأفعالا، أي ما يقوله الشخص، أو يأمر بفعله. ولتبسيط هذه الفكرة التي سأعمل على تعميقها أعتبر الرواية، بمثابة كلمة الروائي. إنها تتضمن أفعال الشخصيات وأقوالها التي تتضافر مجتمعة لتتشكل منها كلمة الروائي. إن الكلمة والقول تعبيران عن «ذاتية» المتكلم والقائل في أي كلام أو قول.

يستعمل أي متكلم في أي كلام يتوجه به إلى غيره ضمير المتكلم بالمفرد أو الجماعة بالدرجة الأولى، وقد يستعمل ضمير المخاطب، أو الغياب لضرورات تقتضيها نوعية الخطاب الذي ينتج. وتبعا لذلك فإن ذاتية المتكلم، أيا كان الخطاب الذي ينتج تظل حاضرة بشكل أو بآخر. ولما كان القرآن الكريم نصا لغويا فإن

مـا يـسري عليه يجري عـلى أي كلام. غير أن مـا يتميز به القـرآن الكريم عن غـيره هو أن المتكلـم الرئيسي فيه هو الـذات الإلهية، وهـو ما يختلف بـه القرآن عـن غيره من الكتب، وخاصة المقدسة منها. ولقد أدى هذا الاختلاف إلى موقفـين متناقضـين منذ لحظـة ظهـوره لأول مرة إلى الآن، وما بعـد الآن. فهناك من يؤكد هذه الحقيقة، وثمة من يشكك فيها.

إن اعتبـار القـرآن كلام الله الـذي توجـه بـه إلى الرسـول ﷺ ليبلغه للناس عن طريـق الوحي تقدمه لنا نصيـة القرآنيـة وميتانصّياته المختلفة. وتسـتدعي قراءته قـراءة ملائمـة الانطـلاق ممـا يقدمـه لنا هـو نفسـه. أما الذيـن ينطلقون مـن كون القـرآن كلام الله أو من تأليف الرسـول ﷺ ولا يعتمـدون النـص، مـن هـذا المنظور، أو عندمـا يتعاملـون معـه من خـلال إسـقاط تصورات جاهزة على النص فإن سـعيهم الأسـاس هـو تأكيد تلك

التصورات. إن المسلمين في دفاعهم عن كون القرآن الكريم كلام الله يظلون يستنسخون ما قيل قديما، وعلى ما يجري به الاعتقاد. وقلما نجد في كتاباتهم ما يدعم هذا التصور في ضوء ما يبنى عليه النص ليكون ما يدافعون عنه مبنيا على أسس يقدمها النص نفسه بكيفية أكثر تلاؤما مع خصوصيته القرآنية.

أما بعض القراءات الاستشراقية للقرآن الكريم، فإنها، وإن ادعت كونها تعتمد مقاربات تاريخية ـ نقدية للقرآن، تظل، في تقديري، أسيرة تصورين غير ملائمين إبستيمولوجيا. يكمن التصور الأول في أنهم ينطلقون من نموذج نصي (الكتاب المقدس)، ويعملون على إسقاطه على القرآن الكريم، ومن منطلق أرسطي. أما التصور الثاني فهو الانطلاق من خارج النص، باعتماد مرويات متعددة، ومحاولة بناء نص على الكيفية التي يريدون. إن التصورين معا يدفعان بهم إلى تكريس رؤية

يهودية ـ مسيحية ـ يونانية على القرآن الكريم غير مراعين خصوصية المجال الثقافي ـ اللساني العربي الذي نزل فيه القرآن الكريم، أو النص في ذاته.

ننطلق من الكلام القرآني نفسه لإبراز قرآنية الذات المتكلمة فيه، والأصوات التي تعود على ضمائر متعددة وظفها القرآن الكريم لإثبات خصوصيته عن غيره من النصوص. إن الميتا نص القرآني المحوري يؤكد أن القرآن كلام الله، وهو الكلام نفسه الذي بعثه الله إلى كل الأنبياء والرسل. إن المتكلم المركزي الذي يرسل الكلام هو الذات الإلهية، لمخاطب مركزي هو الرسول ﷺ. إن المتكلم في القرآن فاعل، تارة، وفاعل ذاتي، طورا، وناظم أحيانا. يتوجه بالكلام إلى المخاطب عبر وجوه خطابية متعددة يحصرها ابن الجوزي في خمسة عشر وجها، والزركشي في أربعين.

تتعدد هذه الوجوه التي يمكننا رصدها وتتبعها من خلال الآراء المختلفة. غير أنه يبدو لنا أن كلها

ترتد إلى وجه مركزي خاص بالمتكلم بالمفرد (الذات الإلهية)، والتي نجدها في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٩٢)، والجمع: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (الحجر: ٨٥)، وغيرها من الآيات الدالة على الخلق لتؤكد لنا وجود ذاتية خاصة هي التي تكمن وراء بناء هذا النص ومعماريته وبؤرته. وهي التي يمكننا، أيضا، الانطلاق منها لتحديد خطابية القرآن الكريم ونصيته.

وإلى جانب المتكلم بالمفرد (أنا ربكم) وبالجمع (خلقنا) نجد المخاطب بالمفرد والجمع، والغائب كذلك. كما تتعدد أقوال الشخصيات التي يزخر بها القرآن الكريم سواء جاءت بصيغة الخطاب المسرود أو المعروض غير المباشر. نجد في القرآن الكريم أقوال إبليس وآدم ونوح وإبراهيم وموسى وغيرهم، كما نجد أقوالا للسموات والأرض، والنمل، والهدهد، والجن...

يقول موسى مثلا: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾

(الأعراف: ١٤٣)، وإبليس: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (الحجر: ٣٦)، حيث نجد في مثل هذه الآيات أقوال الشخصيات تأتي بعد صيغة «قال»، و«يقولون»، وأشباههما. لكننا لا نجد أقوالا للرسول محمد ﷺ بمثل هذه الصيغ التي تقدم إلينا من خلالها «ذاتية» المتكلم كما حددها بنفنست، ووسعها التداوليون. إن التعابير الموجهة إلى الرسول، والتي تبرز فيها «ذاتيته» تأتي بعد صيغة الأمر بالقول: «قل: « التي تتكرر في القرآن الكريم في أزيد من ٢٧٠ آية:

«قل: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾. (يونس:١٠٨). وعندما تغيب صيغة «قل:» في أي آية :﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ (الأنعام: ١٠٤). يفسرها الطبري، بقوله: «قل لهم يا محمد: قد جاءكم ...». وحين تأتي صيغة الأمر بالقول

مسرودة تكون: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النمل: ٩١). إن غياب ذاتية الرسول رغم وجود «الأنا» تأكيد لكونه مبلغا لا متكلما. ونعاين ذلك، أيضا، فيما يأتي بصيغ أخرى تتصل بالأفعال مثل: اتْلُ، وما كنتَ،،،

يقدم لنا القرآن الكريم بعض الآيات التي نجدها دالة على كون المتكلم هو الرسول ﷺ، لكنها تختلف كلها عن طريقة أقوال الأنبياء والرسل حيث نجد السؤال النبوي، والجواب الإلهي. لكن في الآيات الدالة على «ذاتية» الرسول ﷺ نلفاها تتصل بأشياء تتصل بحياته الخاصة، وهو يقوم بالتبليغ، مثل «التشكي» في قوله تعالى حكاية عن الرسول: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ (الفرقان: ٣٠). أو «التشجيع» في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ

هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٤٠)، أو «الإخبار» بما أنبأه الله به: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (التحريم: ٣).

إن كل الأنبياء والرسل الذي بعثوا قبل محمد ﷺ، أرسلوا إلى أقوامهم فقط. وكل قصصهم مع أقوامهم منتهية (مغلقة) بالعذاب الدنيوي: الطوفان/ الدمار/ الإغراق،،، لكن قصة المسلمين مفتوحة إلى نهاية العالم. لذلك نرى أن كل الأنبياء ظلت بعثتهم مقتصرة على أقوام معينين. أما الرسالة المحمدية فقد اقترنت بالدعوة إلى نشرها على نطاق واسع، وعلى كل الأمم والشعوب على اعتبار أنها آخر خطاب إلهي موجه إلى البشرية جمعاء.

من هم مؤلفو القرآن؟

كل ما قيل قديما، ويكتب حديثا حول القرآن الكريم اضطلع الميتا نص القرآني بالرد عليه، ودحضه بكيفية واضحة. كما أن ما يكتب راهنا ليس سوى إعادة ما قيل سلفا بلغات ومصطلحات جديدة، أو ادعاءات اكتشافات تاريخية ـ نقدية حديثة. لا أهتم كثيرا بهذا النوع من الكتابات العربية أو الأجنبية، ولست معنيا بمساجلتها. لقد كتب عن الاستشراق الشيء الكثير، ولم تؤثر الدعاوى القديمة أو الحديثة في التأثير أو التغيير. لكن ذلك لا يمنع من قراءة تلك الكتابات والاطلاع على «جديد» ما تقدمه من «كشوفات» جديدة من باب الفضول المعرفي، أو مواكبة ما يستجد من آراء وسجالات.

استوقفني وأنا أتصفح محرك البحث عنوان رئيسي مثير، وعناوين فرعية صيغت بعناية للفت الانتباه كما هو

جـار في مختلف المواقع التـي تغريك بما تحمله من عناوين لا تجـد تحتها ما يتناسـب معها لأغـراض تجارية، ودنيئة. كان العنوان لشريط فيديو على منصة اليوتيوب. فدخلت إليه، فوجدت عشرات الصفحات التي تسـير في اتجاه ما يحملـه هذا العنوان: «من كتب القرآن؟ خمسـة مسـارات سرية لمؤلفي القرآن».

كان الشريط من خمس وأربعين دقيقة بالفرنسية يقدمه عـربي، ولعلـه مغاربي. لا تخلـو لغة التعليـق من تضخيم مبالـغ فيه عن «آخر» ما ألف حـول مؤلفي القرآن، ومن خـلال أحـكام مطلقـة حـول قيمتـه العلمية التـي يؤكد «الـراوي» مـن خلالها أنـه ورغم مرور خمسـة عشر عاما عـلى ظهـور الكتاب فإنـه لم يتعرض للنقـد أو النقض مما يـدل عـلى أنه يقـدم حقيقـة لا لبـس فيها بحجـج دامغة واكتشافات تنبني على مجهود بذله العديد من المستشرقين منـذ أكثر من قرن ونصف، وبنـاء على آلاف الوثائق. أما الكتاب فهو تحت عنوان: «المسـيح ونبيه: أصول القرآن»

(٢٠٠٥) لصاحبه إدوار ماري كَالي. كان عنوان الفيديو كافيا لانغوائي، ومتابعة الشريط، ثم بعد ذلك البحث عن الكتاب بهدف تحميله سدى. لكن ذلك لم يمنع من الحصول على وجادات من خلال مقالات وحوارات مع المؤلف أبانت لي بجلاء أن توجهه لا يختلف عن سابقيه.

انطلق الراوي من كون كتاب إدوار كَالي جاء ليكشف، من جهة، بطلان الكتابات الاستشراقية السابقة حول تأليف القرآن سواء تلك التي ادعت نسبته إلى محمد ﷺ مع بعض صحابته، أو التي ربطته بالأصول السريانية المسيحية، أو قيدته بالعصر العباسي. ويؤكد، من جهة أخرى، تبعا لأعمال مستشرقين آخرين، وهم من بنى على منطلقهم كَالي تصوره بالاستناد إلى وثائق جديدة، أن القرآن الأول، وخاصة ما اتصل منه بالسور الطوال، لم يؤلفه المسلمون بل طائفة يهودية مسيحية معارضة لليهودية والمسيحية معا. وتبعا لذلك يتحدث الراوي عما يسميه «القرآن اليهودي ـ الناصري» الذي

هـو عبارة عن دعوة العرب إلى تحرير القدس «مملكة الله» من البيزنطيين؟

يتبـين لمن يتابـع الشريـط إلى نهايته أن ادعـاء العلمية وقـول الحقيقة النهائية من خـلال الدعاية للكتاب يجعله كتابـا مختلفا عن كل الدراسـات الاسـتشراقية السـابقة، وأنه يقـدم فتحا جديدا في تأكيد مؤلفي القرآن، ودحض تصـورات المسـلمين عنـه. لكن السـؤال الـذي أطرحه بخصوص هـذا التوجه هو: لماذا يبذل بعض المسـيحيين كل هـذا الجهد، ويكرس بعضهم قسـطا كبيرا من حياته للبحث في القرآن وتاريخه ونقده؟ هل الهدف هو البحث عن الحقيقة العلمية التاريخية؟ أم دفاعا عن المسيحية؟ أم نقضا للإسـلام؟ لا يختلف هذا المسـعى عن كل المساعي التي قدمت إبان ظهور الإسـلام، لكـن متغيراتها تخضع للتطـورات التي تفرضها شروط الصراع السـياسي، وما اللغـة العاطفية والإغرائية الموظفـة في الدعاية لهذا النوع من الخطابات ليسـت سوى تأكيد لتلك الغايات القديمة الجديدة.

لاحظت من خلال ما توفر لدي من مواد تتصل بالكتاب وصاحبه أن المتلقي المتوجه إليه هو: الإنسان المسلم. بمعنى أن المؤلف لا يتوجه به إلى القارئ المسيحي فهو يتبنى الأطروحة التي يدافع عنها المؤلف. ولكنه يرمي من وراء ذلك إلى تشكيك المسلم في معتقداته بذريعة أن التصور الإسلامي حول القرآن الكريم ليس علميا ولا تاريخيا. فما يثبته «العلم»، وما يؤكده «التاريخ» يناقض ما يؤمن به المسلمون من أن القرآن كلام الله. إن من وراء هذا القصد محاربة اعتقاد باعتقاد آخر، وما ادعاء الحقيقتين العلمية والتاريخية سوى تغطية على ذلك.

في أحد الحوارات التي تستجلي خصوصية هذا «الاكتشاف» الجديد الذي جاء به إدوار كَالي وهو يثمن مجهودات بعض المستشرقين الذين دافعوا عن أطروحة «القرآن اليهودي ـ الناصري»، وجدته يكشف التناقض الذي يزخر به القرآن الكريم، وهو يقارن بين آيتين من سورة المائدة تتحدثان عن اليهود والنصارى بلغة لا

تخلو من سخرية. تقول الآية الأولى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (المائدة: ٥١). إن هذه الآية تدعو المسلمين، كما يفسر، إلى عدم الثقة في اليهود والنصارى معا وعدم التعامل معهم. لكنه يرى في الآية الأخرى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (المائدة: ٨٢)، تناقضا صارخا: إنها تدعو المسلمين إلى التعامل مع «النصارى» عكس اليهود، ويثبت من وراء ذلك أن القرآن مبني على الكثير من هذه التناقضات. ومن بين التبريرات المقدمة للدفاع عن أطروحة «القرآن اليهودي ـ الناصري»، أن المؤلفين من تلك الطائفة في النص يدافعون عن هؤلاء الناصريين، ويثمنون أعمالهم. ولذلك فالنص يميز بين المسيحيين والنصارى. لكن المؤلف مع ذلك، وهو

يقف على هذا التناقض الصارخ بين الآيتين يساجل ضمنيا، أي في قرارة نفسه القرآن، على اعتبار أنه كلام الله، متناسيا أن القرآن الذي يتحدث عنه من تأليف طائفة. وما دام كذلك كما يدعي، فالتناقض من الطبائع البشرية، ولا تستدعي كل تلك اللغة الساخرة. وهذه من بين التناقضات التي يقع فيها من يتحدثون عن القرآن الكريم.

علاوة على ذلك فإن ما اعتبره تناقضا جاء وليد وقوفه على «ويل للمصلين»؟ وفي تتمة الآية ما يناقض ما يدعو إليه نهائيا. إنه وقف عند حدود كلمة «إنا نصارى» في الآية، ولم يتمها: ﴿إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (المائدة: ٨٢) ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ (المائدة: ٨٣) ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (المائدة: ٨٤)». إن في تعابير: منهم،

ولا يستكبرون، وإذا سمعوا، ترى أعينهم، كلها دالة على أنهم مختلفون عن النصارى المستكبرين المعاندين. إن القسيسين والرهبان المشار إليهم (منهم)، وهم ليسوا كل القساوسة والرهبان من طبيعة مختلفة. إنهم اتبعوا الحق، وأعلنوا إيمانهم بما جاء به الرسول. ومثال هؤلاء الرهبان نجده مع المستشرقين. فمنهم من لا يستكبرون، ومنهم من لا يمكن أن يُتخَذوا أولياء أو علماء.

إن الادعاءات ضد الإسلام من خلال استرجاع الآراء المعارضة لكلام الله، ونسبته إلى الرسول أو إلى مؤلفين آخرين ليس جديدا. وفي الميتا نص القرآني ما يؤكد ذلك: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ (النحل: ١٠٣).

اقرأ ... سنقرئك

يفتتح إيريش أويرباخ كتابه الذي يعد من الكلاسيكيات الحديثة، «محاكاة: تمثيل الواقع في الأدب الغربي» ببحثه حول ندبة أوديس في الملحمة اليونانية الأوديسا، مقارنا إياها بما ورد في الكتاب المقدس حول محاولة تضحية سيدنا إبراهيم بابنه إسحاق؟ فيستنتج استغراق الملحمة في ذكر مختلف التفاصيل والجزئيات التي تعود في لحظة من تطور الملحمة إلى فترة في الماضي لاسترجاع قصة الندبة في فخذ البطل، بينما الحوار بين الرب وإبراهيم يقدم بدون تحديد لأهم مفاصل تطور القصة. ويمكننا أن نخرج من هذه المقارنة بأن الخطابات تتباين حسب خصوصيتها ومقاصدها. فالخطاب الملحمي، والكتاب المقدس يختلفان عن بعضهما البعض. ويمكن قول الشيء نفسه، عن الخطاب القرآني وغيره من الخطابات الشعرية

العربيـة. ولو أتيحـت لأويرباخ المقارنة بين قصة سـيدنا إبراهيـم ومحاولته ذبح ابنه إسـماعيل، في القرآن الكريم، مـع القصة الـواردة في العهد القديم لوقـف على عناصر مختلفـة تتعـدى النتائج التـي انتهى إليها وهـو يقارن بين الملحمة والعهد القديم.

تُبـين لنـا هـذه المقارنـة وهـي تميـز بـين الخطابين من خـلال قـراءة داخليـة تسـعى للتمييـز بينهما واسـتجلاء خصوصيـة كل منهـما أن قـراءة النـص من الداخـل، أيا كان جنسـه تختلف عـن القراءات التي تسـعى إلى تقديم قـراءات خارجية مثل تلك التي ترمي إلى دراسـة القرآن الكريـم مثـلا. لقـد توقفـت، في النقطـة السـابقة، حول سـؤال يتعلق بمؤلفي القرآن الكريـم، وتبين لي أن ادعاء العلمية في القراءة ليس مبررا لعدم تناول القرآن في ذاته، ومن الداخـل. بل إن تلك القراءات الخارجية، أيا كانت مصادرهـا أو مقاصدها، حين لا تربط ما تدعيه بما يتقدم إلينـا من داخل النص سـتظل ضربا مـن التأويلات التي

يمكن نقضها بسهولة لأن المواد المستشهد بها لإثبات فكرة يمكن العثور على ما يناقضها لإبراز عكسها. ولذلك نجد مثلا أن بعض الدراسات الاستشراقية حول القرآن الكريم كانت لها مقاصد وطرائق محددة في القراءة والتأويل. وفي كل مرة تقدم لنا معطيات جديدة على شكل وثائق حديثة لتأكيد المزاعم القديمة عينها للتشكيك في أصالة القرآن الكريم، مؤكدة عدم صحة الدراسات السابقة حول الموضوع نفسه، واختلافها معها في المعطيات التي اعتمدتها في زمن سابق، وإنْ كانت النتائج التي تنتهي إليها هي عينها التي كانت مدار الدراسات السابقة.

إن البحث عن الحقيقة العلمية مطلب ضروري، ولا يمكن لأي كان أن يتخذ منها موقفا سلبيا، أو يتخوف منها. لكن أي حقيقة، كيفما كان نوعها تظل مرتبطة بالعصر المعرفي الذي ظهرت فيه. لذلك تظل جزئية وقابلة للدحض في أي وقت. وما يجري على

الأمـور الطبيعية ينسـحب على مـا يتصل بالإنسـانيات، ومـن بينهـا القضايـا الدينيـة. لقـد عمـل الكثـير مـن المسـتشرقين المسـيحيين، بصورة خاصة، على البحث عما يؤكـد تصوراتهـم التقليديـة عن القـرآن الكريـم من أنه مؤلف من لدن الرسـول ﷺ، وبعض صحابته. بل نجد من بينهم من يذهب إلى أن بعض سور القرآن كتبت قبل بعثتـه، بل إنها كانت موجودة حتـى قبل ولادته. والآراء هنـا لا حد لها، ومقاصدها واضحـة. تنبني هذه المواقف على تصـورات جاهـزة حـول الكتاب المقـدس وتحاول إسـقاطها على القـرآن الكريم. يعني ذلـك أن هذا النوع مـن القراءات أسـير تصـورات خاصـة للقـراءة تتحكم فيها الرؤية اليهودية ـ المسـيحية لنصوصهم المقدسـة كما هي متداولة بيننا إلى الآن. إن الرؤية المشـتركة تقضي بأن الكتـاب المقدس وحي مـن الله تدخلت في تأليفه الأيدي البشريـة. وهم لذلـك ينكرون كون القـرآن كلام الله كما هـو بيّـن من خلال النـص ذاته. ومختلف مـا يتصل بهذا

المنطلق يتم تدعيمه بتأكيد مختلف الدعاوى التي يعبرون عنها حول التأليف البشري للقرآن الكريم، وما يزخر به من تناقضات وتكرارات ونقائص لا يمكن إلا أن يدل على تدخل الإنسان في تأليفه. كما أن تأكيدهم على أن هذا التأليف كان يستند إلى نصوص سابقة على البعثة تم الانطلاق منها في التأليف يأتي لتدعيم تصوراتهم المختلفة عنه.

إن قراءة الكتاب المقدس بعهديه يؤكد لنا بجلاء أننا أمام راو يحكي عن الله وعلاقته بالأنبياء والرسل الذين بعثهم، وأن كلام الله جزء من كلام الشخصيات المختلفة فيه. وأي مقارنة بين هذا الكتاب والقرآن الكريم على مستوى الخطاب يبين لنا التفاوت الكبير بينهما. فالله، في القرآن، هو المتكلم والرسول ليس سوى مبلغ عنه. لذلك، رأينا أن حضور النبي ﷺ كمتكلم يكاد يكون منعدما. وأن الأمر بالقول الموجه إليه يكشف لنا، ضمنا أو مباشرة، أن ما يقوله الرسول ليس كلامه، وإنما هو

فقط مبلغ له. وما صيغة الأداء: قل، سوى خير دليل على ذلك.

إذا انطلقنا من كون أول ما نزل على الرسول في سورة العلق: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. (العلق: ١-٥)، نجد أن الأمر بالفعل كان هو (القراءة)، وليس الكتابة. وأن القراءة باسم الرب الخالق والمعلم. والتأكيد على هاتين الصفتين: الخلق والتعليم دليل على أن لا خالق إلا الله، وأنه المعلم الذي ميز الإنسان عن غيره من المخلوقات بالقدرة على التعلم والتفكير. إن الأمر بالقراءة هنا متصل بما سيلقيه الله على رسوله ليبلغه للناس. وما سيبلغه الرسول ﷺ لقومه في بداية الدعوة سبق أن علمه الله لغيره من الناس عن طريق الأنبياء والرسل الذين كان يبعثهم إلى أقوامهم ليعلموهم العلم نفسه. نقرأ في سورة الأعلى، وهي ثامن سورة بعد العلق، ما يؤكد ذلك. ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ

رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ
ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ
ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ
ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى
ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾
وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ
خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ
وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾. (الأعلى: ١- ١٩). إن الأمر بالتسبيح يناظر الأمر بالقراءة، إلا أن الفعل جاء هنا متعديا، عكس الأمر بالقراءة الذي جاء لازما. وفي هذا الأمر تأكيد على أن الخالق سيتكلف بإقراء الرسول ما كان متحققا في الصحف السابقة عليه، ومنها صحف إبراهيم وموسى. بمعنى أن كلمة الله تحققت في كتب كثيرة، والقرآن من بينها. لذلك فالنص القرآني يتصل بالكتب بالسابقة، وهو امتداد وتصحيح لما لحق بها من اليد البشرية.

إن طريقة التعبير القرآني، في ذاتها، تختلف اختلافا جذريا عن تلك التي نجدها في الكتاب المقدس، وعلى كل المستويات الشكلية والدلالية. ولو أردنا مقارنة الكتاب المقدس بما ورد متصلا بالقرآن الكريم، لوجدناه ليس في القرآن، ولكن بكيفية مختلفة نسبيا بما جاء في الحديث النبوي، بصورة عامة، أو بالسيرة النبوية بكيفية خاصة، حيث نجد حضورا أساسيا للرواة، ولحضور كلام الرسول ﷺ، تماما كما نجده في الكتاب المقدس. فإذا عدنا إلى صحيح البخاري في عرضه لبداية البعثة لوجدناه يأتي بتفاصيل وجزئيات لا تتضمنها سورة العلق. ويمكننا قول الشيء نفسه، وإن بصورة أكثر تفصيلا، عند قراءة سيرة ابن إسحاق أو سيرة ابن هشام متصلا بالسورة نفسها، أو غيرها من السور والآيات القرآنية حيث نجد تعدد الروايات، وتغير العبارات.

إن قراءة النص القرآني في ذاته مطلب ضروري لتجاوز نقائص القراءات الخارجية وحدودها التي

تنهـض على الإسـقاط والاجتـزاء. لكن أي قـراءة لا بد مـن أن يكون لديها تصور محدد حول كتابة النص القرآني للتلازم الوثيق بينهما.

٣ـ الكتابة

أسئلة الكتابة

كنت وما أزال، كلما أستمع إلى أحزاب أو سور من القرآن الكريم، أو أقرؤها من المصحف أجد نفسي أطرح أسئلة عن العلاقة بين الشفاهة والكتابة، وأثر كل واحد منهما في تحصيل المعنى المراد. إن لكل من الشفاهي والكتابي خصوصيتَه وإكراهاتِه التي هي من صميم طبيعته الخاصة. ولما كانت القراءات القرآنية متعددة، ولقد بذل المسلمون، على مر التاريخ، مجهودات كبيرة لضبطها، والتنظير لها من خلال وضع قواعد خاصة هي أساس «علم القراءات»، فإن كتابة النص القرآني لم تحظ بالاهتمام نفسه على حد علمي. صحيح نجد اهتماما برسم الكلمات، وضبطها، بهدف تدقيق كيفية النطق بها. وكان هناك نقاش حول الرسم القرآني، واختلفوا في الجواب عن سؤال: هل هو توقيفي

أو توفيقي؟ لكن الأمر في رأيي لم يكن سوى حول الكتابة في حد ذاتها، وليس بخصوص الحيز الذي يمكن أن تشغله، وهذا هو ما يهمني بالدرجة الأولى والأخيرة، لأني أرى أن الفضاء الذي يمكن أن تملأه الكتابة له دخل كبير في تحصيل المعنى، وتحقيق دلالة النص القرآني.

إن الكتابة على الصفحة كما يقوم بذلك أي كاتب تتطور باستمرار. فالكتابة باليد، كما في المخطوطات القديمة، كانت تخضع لإكراهات تتصل بالحيز الذي تفرضه الصفحة، وطبيعة الوسيط. أما مع الطباعة فقد تطورت الكتابة، ولم يبق مشكل الورق مطروحا، فخضعت الكتابة للشروط التي يراها الكاتب في خدمة خطابه. فكانت العناوين الفرعية، وترقيم الفقرات، وتوظيف لعبة البياض والسواد، ومع الوسائط الجديدة صارت الكتلة النصية خاضعة للشروط وللوظائف التي تقدمها الحزمة المكتبية من إمكانات، مثل: تغيير البنط، والألوان، والكلمات الغليظة والمائلة، إضافة إلى العناوين

الفرعية، من المقدمة إلى الخاتمة، وغيرها.

إن المادة المكتوبة واحدة، ولكنها تتخذ أشكالا وصورا متعددة، وهي تتحقق من خلال حيز ورقي محدود (الجريدة)، أو موسع (المجلة)، أو مفتوح (إلكتروني)، تبعا لوعي الكاتب أولا بما يسمح له به الفضاء، وما تتاح له من إمكانات لاستثمار وظائف متعددة، من جهة، وكل ذلك لتحقيق غاية معينة، وهي التواصل مع القارئ بكيفية أدق وأجمل، من جهة ثانية، تراعي الوسيط الذي يتم التعامل معه.

فما الفرق بين قراءة مادة في جريدة، ومجلة مثلا؟ إن على قارئ الكتابة الأولى أن يبذل مجهودا كبيرا، وهو يتنقل بين أسطر المقالة بدون أي توجيه محدد. وعليه أن يركز كثيرا على الجمل الأولى، ويحاول، وهو يقرأ، ترتيب الأفكار وينسقها في ذهنه، قبل متابعة القراءة، وحين يكون الانتقال من موضوع إلى آخر، يتوقف ذهنه مؤقتا ليتابع ما هو جديد حتى ينتهي منه، ليعيد ربطه بما سبق،

إذا لم يكـن ثمة اسـتطراد إلى فكرة ثالثـة مختلفة تدفعه إلى القيام بالعملية نفسـها: وضع كل فكرة في خانة افتراضية في ذهنـه، ويعمل بعد ذلك على الربـط بينها، وصولا إلى النهايـة. إن قـراءة الكتابة الأولى تفرض عـلى القارئ أن يكون حـاضرا، ومتتبعا للنص الذي يقـرأ من البداية إلى النهايـة، وأن يبـذل جهـدا كبـيرا في الربط بـين الأفكار، وإعـادة ترتيبهـا في ذهنـه، واسـتحضارها، بعـد ذلـك، ليحصل المراد من قراءة المقالة، وفهم مقاصدها.

أمـا الكتابـة الثانيـة التي يوظـف فيهـا الكاتب فضاء الصفحـة مسـتثمرا فضاءهـا الموسـع أو المفتـوح، وهـي تتقـدم إلى القـارئ من خلال تمهيد يُطرح فيه الإشـكال، وعناويـن فرعيـة تتـوزع إليها المـادة النصيـة المعالجة، أو من خلال التشـديد على كلمات لإثـارة الانتباه إلى قيمتها الخاصـة في النص، كل ذلك يتيـح للأفكار أن تتدرج من الأعـم إلى العام إلى الأخص وصولا إلى الخاتمة التركيبية. إن هـذه الكتابة بسـبب المجهود الذي بـذل فيها يتجاوز

إكراهات الصفحة المحدودة، ويتيح تحقيق المراد تحصيله بكيفية أنسب وأوضح وأبسط. إننا هنا أمام كتابة مختلفة تتسلسل فيها الأفكار، وتتطور، بكيفية سلسة ومنسابة. وإلى جانب هذه الكتابة يمكننا الحديث عن كتابة ثالثة هي الرقمية التي توظف خاصية «النص المترابط».

إن التفاعل والترابط حاضران في الكتابتين والقراءتين معا، وبصورة خاصة في الكتابة الرقمية التي سنتحدث عنها في الترابط النصي القرآني. لكن كل واحد منهما يتحقق في ضوء خصوصية الوسيط، وإكراهاته، من جهة، ومدى وعي الكاتب بإعداد مادة كتابته لتحقيق تواصل أفضل، من جهة أخرى. ما قلناه عن الكتابة ينسحب، إجمالا، على الشفاهة أيضا رغم الفرق بينهما. فالمتكلم يبذل قصارى جهده للتواصل مع مخاطبه، وهو يتوجه إليه في مقام تواصلي محدد.

أما في الشفاهة فالأمر مختلف نسبيا. فكيف يتكلم المرء شفاها، ويجعل السامع يتواصل معه ويفهم مراده؟

وحين نقوم بنقل نص شفاهي إلى الكتابة ما الذي يتحكم فيه؟ هل الأصل الشفاهي الذي كان يراعيه المتكلم في مقام خاص؟ أم إكراهات نقل هذا الكلام إلى وسيط معين كان يفرض وجوده قبل التطور الذي عرفته الوسائط الجديدة؟

إن الهدف من هذه الأسئلة هو محاولة فهم الكيفية التي نقل بها النص القرآني من الشفاهة إلى الكتابة، والعلاقة بين القراءة والكتابة القرآنيتين. وهل بالإمكان تطوير القراءة والكتابة بهدف الارتقاء بهما لتحقيق المراد من فهم ملائم للنص القرآني.

الكتابة القرآنية والإيماء النصي

جعلت العنوان الفرعي لكتاب: «النص المترابط ومستقبل الثقافة العربية» (٢٠٠٨) ينحو: «نحو كتابة عربية رقمية». وكانت الدعوة من وراء ذلك ترمي إلى إعطاء الكتابة العربية الحديثة بعدا جديدا يتلاءم مع الوسيط الجديد. ولكي يتحقق هذا البعد على النحو الأمثل ثمة ضرورة الاستفادة مما تحقق مع الطباعة التي لم تستثمرها الكتابة العربية بصورة كبيرة. لقد ظلت كتابتنا تحمل جذورها الشفاهية، ولم تتطور كثيرا لتستلهم التيبوغرافيا التي تحققت مع الطباعة. وجاءت دعوة موازية لهذه إلى ضرورة «إعادة كتابة القصيدة العربية» بهدف تجاوز إكراهات الوسيط الكتابي الذي ظهر مع المخطوط، والذي انتقل إلينا مع الطباعة دون أن يتغير ليتناسب معها، وكأن قدر كتابة

القصيدة العربية القديمة يقضي بأن تظل على الصورة التي كتبت بها قديما إلى الآن.

إن أسئلة الكتابة التي طرحناها في النقطة السابقة، كان الهدف منها، ونحن نفكر في الكتابة القرآنية هو تقديم اقتراح كتابة جديدة لا تتعارض مع الكتابات القرآنية المختلفة، وهي كثيرة بالمناسبة، وليست بديلا عنها. إنها تكملها، وتستفيد من كل منجزاتها، ساعية بذلك إلى وضع الكتابة التي أقترح في سياق جديد يتواءم بصورة أكثر وضوحا وبساطة مع متطلبات النص القرآني وفهمه من خلال إعادة النظر في العلاقة بين الشفاهة والكتابة، من جهة، وبين القراءة والكتابة، من جهة أخرى. يحافظ الاقتراح الذي سأقدم على الرسم القرآني كما هو لأن المسلمين حملوه بعض جوانب المعنى الذي تعرفه الكلمة حسب الرسم المختلف الذي تأخذه في سياقات مختلفة. وأقصد بالكتابة هنا الفضاء النصي الذي تتحرك

في نطاقه الآيات والسور، بكيفية تستفيد منه في توزيع النص على النحو الذي يمكننا من تحصيل المراد منه لأن النص القرآني مختلف عن كل النصوص. وكلما اجتهدنا في إعادة كتابته وقراءته باعتماد كتابة وقراءة جديدتين تراعيان خصوصيته أمكننا ذلك من فهمه بصورة أجلى وأبسط وأوضح.

أنطلق في هذا التصور من الفكرة التالية التي تكونت لدي من خلال اهتمامي بالوسيط الرقمي، ومفادها أن أي كتابة لأي نص، وأقصد هنا كيفية توزيعه على الصفحة، يقدم قراءة خاصة. كما أن أي قراءة لأي نص تنطلق بوعي، أو بدونه، من كيفية كتابته على الورق. هذه العلاقة الجدلية بين الكتابة والقراءة هي نفسها التي نجدها في الخصوصية التي تقدمها لنا اللغة العربية، والتي لا نكاد نجدها في أي لغة أخرى. إنها علاقة تشكيل الجملة وقراءتها: فنحن نشكل النص لنقرأه،

ونقرَؤه لنشكله. ولا يتحصل المعنى المراد إلا من خلال القيام بهذا العمل المزدوج في آن واحد.

لتوضيح هذه الفكرة أرى أن المتكلم شفاها لا يؤدي المعنى الذي يود إيصاله إلى مخاطبه، فقط، بواسطة اللغة التي تنتهي إلى مسامع متلقيه. إنه يوظف بشكل مواز لها حركات الوجه واليد التي تراها أعين المخاطب، فتتكامل مع ما يسمعه لفهم المعنى. فإلى جانب الصوت ثمة الحركة. ويمكن ضرب المثال بالشاعر حين ينشد، والراوي حين يسرد، والخطيب وهو يخطب. ألا نرى متكلما في الهاتف، ومخاطبه لا يراه، كيف يوظف يديه، ومختلف الإشارات المصاحبة لكلامه، وكأنه يحس أن الأداء اللغوي ما لم تصاحبه الحركة غير تام. إنه في حاجة إلى الحركة لإنجاز فعله الكلامي. وتبعا لذلك يمكننا الاستنتاج أن التواصل الشفاهي يزدوج فيه الصوت الذي نسمع، والحركة التي ترى.

إذا اتفقنا على هذا، واعتبرناه قاعدة كلية لأي تواصل

شفاهي في الحياة اليومية، نتساءل: كيف تجري الأمور في التواصل الكتابي؟ فهل النص المكتوب هو فقط عبارة عن أصوات (حروف) تتمفصل إلى كلمات، وجمل ومقاطع وبنيات؟ وهل الصوت المحول إلى كتابة يؤدي المعنى المراد فقط بواسطة اللغة؟ إذا أجبنا بالإيجاب وسلمنا بأن التعبير الكتابي أبلغ من الشفاهي نكون بذلك نخرق القاعدة الكلية التي سلمنا بها أعلاه، والتي يزدوج فيها الصوت مع الحركة؟

إن المتكلم شفاها يستعين بالحركة لأداء ما يريد إيصاله إلى مخاطبه. سنسمي مؤقتا تلك الحركات بـ«الإيماء»، ونفترض، تبعا لذلك، أن التواصل الكتابي، يستعين بدوره بـ«حركات»، أي بما يمكن أن نسميه بـ«الإيماء النصي». يتجلى هذا الإيماء النصي في القرآن الكريم في علامات الوقف، ومختلف الحركات، والإشارات، ومن بينها رسم الكلمات، وكيفية توزيع النص على الصفحة، واستعمال الألوان، وغيرها من الحركات التي نراها

بالعين، ولا نسمعها حين نقرأ النص القرآني. وهذه «الإيماءات» النصية لها دخل قوي في مسألة فهم معاني النص القرآني. إننا حين نقرأ النص القرآني لا نسمع فقط أصواتا، ولكننا نرى أيضا حركات، وهي تتضافر مجتمعة مع النص المقروء، والمكتوب معا لتجعلنا ننتبه إلى ما «نسمع» حين نقرأ «صوتيا»، أو «نرى»، ونحن نقرأ «كتابيا». إننا حين نقرأ، نسمع ونرى في آن واحد، وهنا مكمن أهمية تجديد الكتابة، وتنويعها.

القراءات القرآنية وكتاباتها

يختلف القرآن الكريم عن غيره من النصوص البشرية. فهو تنزيل من الله إلى رسوله الكريم. كان الوحي يقرئ الرسول ﷺ آيات وسورا في أوقات متباعدة. فكان يحفظها ويتلوها أمام الصحابة الذين كانوا يتلقونها منه شفاها، فيحفظونها بدورهم وفق ما سمعوه من الرسول ﷺ. وكان منهم من يكتب ما يحفظ محتفظا به لنفسه، ولكنه عند مراجعة ما كتب كان يستحضر سماعاته للنص الذي احتفظ به. استمرت مرحلة تلقي القرآن الكريم وتداوله شفاها طيلة مرحلة التنزيل. وكان أن اتخذ المصحف العثماني صورة الكتاب الذي انتظم فيه القرآن كاملا موزعا إلى سور تتضمن آيات وفق ترتيب توقيفي عن الرسول ﷺ. وآية ذلك ما يمكننا الوقوف عليه بدقة في الميتا نص القرآني الذي اعتبرناه القسيم الثاني للنص القرآني في جوانبه المختلفة.

وظلت الكتابة القرآنية تتطور مع الزمن، مع تطور كتابة اللغة العربية وما عرفته في صيرورتها مع مرحلة التدوين، والتفنن في الخطوط والأشكال التي تبرز لنا في مختلف المخطوطات العربية القديمة.

إن كل هذه التطويرات التي حدثت في كل التاريخ حافظت على الصورة الأولى للنص القرآني، رغم الاختلافات بينها، وذلك لتحقيق غايتين اثنين: تتمثل أولاهما في حفظ القرآن كما أنزل سماعا، وتقديمه على الكيفية التي كان يتلقاها بها الرسول ﷺ وصحابته. وثانيا بجعله أقرب إلى فهم مختلف شرائح القراء، وليس فقط المتخصصين في العلوم القرآنية، والمدركين لمختلف ما اتصل به من خصوصيات كتابية وقرائية.

يمكن لإنجاز تاريخ لكتابة القرآن الكريم أن يكشف لنا مختلف المراحل التي مر منها، والعوامل التي ساهمت في تجديد قراءته وتفسيره وتأويله لأن أي كتابة جديدة تؤدي إلى خلق أفق جديد في التلقي والفهم. ولعل

في تعدد الكتابات ما يدل في الوقت نفسه على تعدد القراءات. لذلك يمكننا، ونحن نتأمل انتقال النص القرآني من الشفاهة إلى الكتابة ثم إلى الطباعة، فالرقامة، أن العلاقة بين قراءة القرآن الكريم وكتابته ظلت متلازمة. وتبعا لذلك يمكننا في ضوء هذا أن نميز بين أنواع القراءات والكتابات، ودور كل منها في التعامل مع النص القرآني بصور متعددة ومختلفة.

أختزل القراءات المتعددة في نوعين أساسيين: قراءة أحادية الصوت من جهة، وأخرى متعددة الأصوات. فالأولى ذات بعد وظيفي يتمثل في قراءة القرآن في الصلوات، والمناسبات الخاصة، وفي ضرورات حفظه، أو محاولة شرحه، وتفسيره، وتأويله. قد تكون هذه القراءة فردية، أو جماعية، وسريعة، أو بطيئة. وقد تكون لسورة، أو لآيات معدودات من سورة طويلة، كما في القراءات الجماعية في المناسبات، أو لحزب كامل، كما في قراءات الفجر والمغرب كما هو معهود في المساجد

المغربية. ونعتبر هـذه القراءة أحادية الصوت لأنها خطية تنبني على تسلسل الآيات كما هي مرتبة في المصحف.

أما القراءة المتعددة الأصوات فتبرز لنا عادة في الترتيل الذي تتعدد فيـه المقامات الصوتية التـي يوظفها القارئ المجود، والتي يراعي فيها تبدل الأصوات، حسب سياق الآيات، وتغير موضوعاتها، فيعيد، ويستعيد، وكلما تقدم قليـلا نجـده يعـود إلى مقاطع سـابقة، ويربطهـا بغيرها، فيسـمح هذا التنويع الصـوتي، في تحقيق نـوع من التأمل والاسـتكناه الـذي لا تتيحـه القراءة الخطية التسلسـلية. لذلـك نعتـبر هـذه القـراءة غير خطيـة، وقد يكـون فيها التركيـز على مقاطـع محددة يختارهـا المقرئ بعنايـة، أمام جمهور خـاص، أو كما نجدها في التسـجيلات التي تقدم القرآن كاملا.

يمكننـا إذا مـا توقفنا أمـام هاتين القراءتـين بتفصيل أن نجد أنفسـنا بصـدد قراءات متعددة لكل منها سـماتها حسـب المقام والسـياق، من جهة، وما تحمله، أو تسـعى

إلى تحقيقه من إمكانات لفهم دقيق ومتأن، أو تحصيل متعة جمالية، أو انغماس في تجربة تعبدية وخشوعية من جهة أخرى. وما قلناه عن القراءة يمكننا الوقوف عليه بخصوص الكتابة أيضا. فالكتابة الخطية تتابعية، وهي التي ظلت مهيمنة خلال مرحلة الكتابة مع المخطوط بسبب الإكراهات التي كانت تفرضها الكتابة باليد، والتقيد بما كان يتصل بالورق وغيره من الأدوات المتصلة للكتابة. ورغم هذه الإكراهات فهي لم تقف حاجزا دون تحقيق كل الشروط التي تم توفيرها لتقديم النص القرآني وفق القواعد الملائمة المختلفة التي تطورت مع الزمن، والتي أضيفت إليها المسحات الجمالية التي تميزت بها كتابة المصحف بالمقارنة مع غيرها من الكتابات، مثل توظيف الألوان، وتغيير الخطوط، وما شابه ذلك.

أما الكتابة غير الخطية فاتخذت صورا متعددة، في مرحلة الطباعة (المصحف المطبوع)، عامة، والرِّقامة بصورة خاصة (المصحف الإلكتروني بأنواعه المختلفة).

ومـن أهم مميزاتها أنها لم تخضع لإكراهات فضاء الصفحة كـما وجدنـا ذلك مـع الكتابة السـابقة. لقـد عملت على إعطـاء البعـد البصري صـورة مختلفة لا تقـف فقط على ما يتصل بالكلمة، أو رسـمها، ولكـن أيضا كان التركيز فيهـا على الموقع الذي تحتله على الصفحة. فنجد في بعض المصاحف، ولا سـيما الإلكترونية منهـا، والمقدمة بصيغة الـوورد، كيـف أنهـا تتقيد على مسـتوى السـطر، بالآية، فتقدمها لنا من بدايتها إلى نهايتها، ثم تعود إلى سطر آخر، لتقـدم آية أخـرى وهكذا دواليـك. وتتيح هـذه الصيغة إمكانيـة معاينة كل آيـة على حدة، والوقـوف عليها أثناء القـراءة، والتأمـل فيها قبـل الانتقال إلى غيرهـا، والربط بينهـا، وبين مـا سـبقها، واسـتعادتها، وهكـذا دواليك. قـد تحقـق، رغم ذلـك، طريقة هـذه الكتابة قـراءة خطية لـدى بعض القراء. وهذا صحيـح. كما أن الكتابة الخطية قد تـؤدي إلى قراءة غـير خطية. لكن نوع القـراءة إجمالا يتحـدد في ضوء الكتابة، وإن كان الأمر عامة يتصل بنوع

القـراء، وإمكاناتهم الخاصة، ومعرفتهـم بشروط القراءة ومقاصدها.

إلى جانـب الكتابـة «العمودية» التـي لا تتقيد بفضاء الصفحة، نجد كتابة خطية، تسلسلية، ولكنها تعمل على توزيع كتلة النص القرآني حسب الموضوعات، فتميز بين الآيـات والمقاطع القرآنية تبعا للموضـوع الذي تتناوله، بألوان مختلفة تتناسـب مع نوع الموضوع. وإذ ندرج هذه الكتابـة في غير الخطية، لأنها تتيح للقارئ التوقف على ما تقدمه التقسـيمات، أو التقطيعات النصية حسب الألوان وهـي تميز بين الموضوعـات، فتجعله يعمـل على تبين ما تقدمـه له، قبـل الانتقال إلى المقاطع التاليـة. كما أن فضاء الصفحـة حـين تتعـدد فيـه الموضوعات يسـمح للقارئ بالنظـر إليها في كليتها، ثم الرجوع للوقوف على كل جزء منهـا. ولعل هذا من مقاصد تبني هـذا التوزيع للصفحة لدى معدي هذا النوع من الكتابة القرآنية.

وأخيرا يمكننا أن نشير إلى نوع ثالث من هذه الكتابة، وهي مختلفة عن السابقتين، والتي تتميز بكونها تسعى إلى التعامل مع السورة الكاملة في حد ذاتها، فتقدمها لنا على شكل خطاطات تتخذ صورا متعددة تجعلنا نقف على ما في أي سورة من موضوعات، أو قضايا.

إن علاقات القراءات بالكتابات القرآنية المتعددة تجعلنا نقرأ بآذاننا، ونسمع بأعيننا، في الوقت ذاته. ولم يتأتَّ هذا إلا للنص القرآني. وفي هذا تأكيد على الخصوصيات التي يتميز بها النص القرآني عن غيره من النصوص. ولعل فيما يمكن أن نعثر عليه من خلال توظيف تقنية «النص المترابط» في تقديم القرآن الكريم ما يتيح لنا فرصة مختلفة في الكتابة والقراءة معا.

تجارب في كتابة سورة الفاتحة

تعددت القراءات القرآنية وتنوعت في المشرق والمغرب. وكانت الطبوع والمقامات مختلفة ليس فقط باختلاف طرق التجويد والترتيل، ولكن أيضا حسب ما تؤديه أي قراءة من المعاني والدلالات، ومدى مطابقتها لها. لذلك نذهب إلى أننا لا نفاضل بين القراءات إذ لكل منها خصوصيتها، وأصالتها التي تستمدها من الأصول، وهي ترمي إلى تطويرها، أو وهي تتباين وفق ما تسعى إلى تحقيقه من مقاصد، ومدى قدرتها على ممارستها على النحو الأمثل الذي ظل يحدد طموحاتها.

ما نقوله عن القراءة القرآنية ينسحب بشكل كبير على الكتابة. ميزنا بين الخطية، وغير الخطية. ونؤكد أن كل كتابة للنص القرآني اجتهاد يسعى إلى تحقيق غايات لا تختلف عما كان يرمي إلى المسلمون الأوائل، وهم يعملون بجد على الحفاظ على القرآن الكريم كتابة

وقراءة كما أنزل على الرسول ﷺ. أما الاختلافات فهي إما وليدة الخضوع لإكراهات الفضاء النصي، أو السعي إلى محاولة تجاوزها باستثمار التطور الذي عرفته الوسائط مع الزمن. ونلاحظ من خلال تتبع مختلف المصاحف القديمة والحديثة أن كتابة المخطوط تختلف عن المطبوع اختلافها عن المرقوم.

اخترت للتمثيل على هذا ثلاثة نماذج من الكتابة القرآنية التي ندرجها في نطاق الكتابة غير الخطية، واتخذت سورة الفاتحة مثالا لكتابتها. يعتمد النموذج الأول الذي حملناه من النت، تحت عنوان «خطاطات القرآن الكريم» الأشكال والخطاطات في تقديم السورة حسب طولها أو قصرها في صفحة واحدة، بحيث تبدو المكونات التي تتضمنها السورة عبر صور مختلفة بحسب اختلاف طبيعتها. وفي مثال سورة الفاتحة نجد هذا النموذج يتقدم إلينا عموديا من خلال توزيع آياتها إلى ثلاث خانات مقسمة على ثلاثة أغراض هي: العقيدة والتي تبدو من خلال الآيات الأربع الأولى. والثانية

العبـادة: في الآيـة الخامسـة: إياك نعبد إياك نسـتعين. أما الخانـة الأخيرة فمنهج الحياة، وتشـمل الآيتين السادسـة والسـابعة. ولقد اسـتعان هذا النموذج بالألوان للتمييز بـين الآيـات حسـب اشـتراكها في المحور الـدلالي الذي حدده لها.

ش. ١ (خطاطات القرآن الكريم، وهو عبارة عن خرائط ذهنية لتبسيط فهم معاني سور القرآن، بدون تاريخ، ولا إعداد)

ش. ٢ (دار الفجر الإسلامي: بيروت (٢٠٠٧): مذيلا بالتفصيل الموضوعي، باستخدام فكرة الترميز بالتدرج اللوني للدلالة على أقسام المواضيع)

وفي طبعة من البحرين لمصحف على غرار طبعة بيروت: التفسير الموضوعي للحافظ المتقن (٢٠٠٨). نجد توزيع سورة الفاتحة إلى قسمين كبيرين. يمتد أولهما على الآيات الخمس الأولى. ويشمل القسم الثاني الآيتين السادسة والسابعة، مع التمييز بين القسم الأول بجعل الآيات الأربع الأول تحت موضوع الثناء على الله وتمجيده، وقصر الآية الخامسة على عبادة الله والاستعانة به. اتخذ القسم الأول اللون الأزرق الفاتح. والقسم الثاني اللون الأخضر. تشترك هذه النماذج الثلاثة في استعمال الألوان، والتمييز حسب الموضوعات. ولقد لاحظنا اختلافا طفيفا بينها سواء في اللون أو الموضوع، وفق الشكل التالي:

(مصحف البحرين ٢٠٠٨)

نلاحظ من خلال هذه التجارب محاولات موفقة، رغم الاختلاف بينها في السعي إلى الاجتهاد في تقريب موضوعات القرآن الكريم، ودلالاته إلى القارئ. ويمكن لقراءة تحليلية التوقف على ما في كل كتابة، وما تضطلع به وظيفيا من خلال بحث سوسيولوجي يعتمد مقاربة تجريبية للوصول إلى نتائج مرضية.

نماذج من الكتابة الجدولية

في تجربة خاصة تولدت لدينا من خلال القراءة والسماع الدائمين انتهيت إلى أن أي توزيع للنص القرآني على الصفحة يجب أن ينطلق من تصور محدد ليس فقط انطلاقا من السورة في حد ذاتها، ولكن من خلال القرآن الكريم في كليته. وبعد إعمال النظر، عملت على تحديد ما يمكن أن أسميه: البنية المركزية للدلالة لتكون منطلقا لفهمي للسورة في حد ذاتها، وفي ضوء علاقاتها بغيرها من السور الأخرى. وبدأت تجريب ذلك مع السور القصار لأنها في الحقيقة هي التي ألهمتني إلى هذا الاختيار. أرى أن البنية المركزية للدلالة في القرآن الكريم يمكن أن نختزلها في ثلاثة مكونات: قول إلهي يتوجه به الله إلى عباده من خلال رسوله الكريم، من خلال صيغ وأساليب متعددة (القسم، التوكيد، النفي، الاستفهام،،،)، وينقسم الناس بخصوص هذا القول إلى

قسمين: سامع مصدق ومطيع، وسامع مكذب وعاص، من جهة، أو الثواب أو العقاب المتصل بكل واحد منهما، من جهة أخرى. وكل السور في القرآن الكريم تتمحور حول هذه المكونات وإن اختلفت الموضوعات المقدمة فيها.

جاءت سورة الفاتحة موزعة إلى جدول قسمناه إلى ثلاثة أعمدة. جعلت أوسطها يتضمن القول الإلهي، وتتوزع صور التصديق وما يمكن أن تتفرع إليه من قيم، ونتائج في العمود الأول، ونقيضها في العمود الثالث. أما أفقيا فقد توزعت الآيات إلى خمس خانات هي على التوالي: في خانة عمود الوسط (القول الإلهي) وضعت الآيات الأربع الأولى. وجاءت الخانات الأفقية على اليمين موزعة على ثلاث خانات حسب الآيات الخامسة والسادسة، ونصف الآية السابعة (صراط الذين أنعمت عليهم) وكان نصفها الآخر في خانة العمود الثالث الذي جعلته لكل ما هو نقيض للعمود الأول: «غير المغضوب عليهم ولا الضالين».

أ. جدولة الفاتحة:

	بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾	
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾		
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾		
اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾		

صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم		
		غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧

نلاحظ من خلال هذه الجدولة هيمنة صيغة الدعاء (أربعة جداول علة اليمين) التي تبتدئ بحمد الله وتعظيمه (الجدول الأول)، والإقرار بعبوديته، وطلب الاستعانة به (الجدول الثاني والثالث)، وطلب هدايته إلى الطريق المستقيم الذي أنعم به على من هداهم إليه (الجدول الرابع)، مجنبا إياهم طريق المغضوب عليهم (الجدول الأخير).

ب. جدولة سورة الأعلى :

+	الأمر الإلهي	−
	بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ	
سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾		
	ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾	
وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾		فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾

	سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ٧	
	وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ٨	
فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ٩		

سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ﴿١٠﴾		وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿١٣﴾
قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾		
		بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾

	وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾	
	إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾	

تؤكد لنا هذه الجدولة كيف أن الأوامر الإلهية الخاصة بالرسول، والموجهة إلى الناس أنها جاءت في الوسط، وهي موزعة حسب المطلوب من الرسول في عمود اليمين: (سبح، ذكر)، ومن المؤمنين (الذكر، الفلاح، الصلاة). أما في عمود اليسار فالحديث عن الكفار: تجنب الذكر، وإيثار الحياة الدنيا. وأن هناك تقابلا واضحا بين الأوامر والأفعال الإلهية التي تقابل بالرضا والطاعة، ونقيضها بالعصيان والعقاب.

ج- جدولة سورة الغاشية:

	بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾	
		وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ		
نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا		
رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ		
عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ		
فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا		
عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا		
سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾		
وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ		
﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ		
مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾		
وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾		

		أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾
فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾		
		إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾

	إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾	

تقدم لنا هذه السورة نوعا آخر من التقابل بين وجوه المؤمنين والكافرين، وما يلقاه كل واحد منهم جزاء عمله. كما نعاين تحدي الكافرين بالنظر في خلق الله، وطلب الرسول ﷺ بتذكير الغافلين، وأن حساب الله لا مقر منه.

د. جدولة الفجر

	بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾	

		أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾

فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾		وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾
		كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾

	كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾	
		يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾

	فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾	
يَٰٓأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾		

تؤكد لنا هذه السورة ما رأيناه في غيرها من التقابل بين الأوامر والنواهي، وصفات الناس حسب انتمائهم إلى هذا الجدول أو ذاك الذي يحدد الانتماءات والتمايزات. ولعل في قراءة متأنية وتحليلية لكل سورة ما يثبت ما نتصور أنه يسهل عملية القراءة، وهي تقابل بين مختلف الأقوال والأفعال، وما يتميز به كل واحد منها عن غيره مما يسمح للقراءة أن تكون مؤطرة للمعاني والدلالات.

٤ـ النص

القرآن الكريم والنص الكوني

يفرض علينا تحليل القرآن الكريم طرح أسئلة جديدة إذا ما رمنا فعلا تجديد قراءتنا له، وتجاوز القراءات الخارجية الإسقاطية. نقترح ثلاثة أسئلة تتلخص في: كيف نقرأ القرآن؟ ولماذا؟ وعندما ننطلق من أن القرآن الكريم نص لغوي، يفرض علينا السؤال الثالث نفسه بإلحاح: ما هو الموقع الذي يحتله هذا النص ضمن إنتاج النصوص وتلقيها؟ ومعنى ذلك بتعبير آخر: ما هو التصور الذي ننطلق منه ليكون أساس دراستنا، ومحور اهتمامنا؟ إن الجواب عن السؤال الأخير هو بمثابة المدخل الذي منه نتوجه لطرح سؤال الكيفية، لننتقل بعد ذلك إلى سؤال اللماذا؟

برزت خلال الحقبة البنيوية عدة نظريات لتحليل النص، والخطاب في الدراسات الحديثة، وهي تتأسس

على خلقيات لسانية، وتتداخل فيها اختصاصات متعددة ترتبط بالعلوم الإنسانية والاجتماعية. لكنها لم تتطور بالقياس إلى ما حققته الدراسات التي اهتمت بالسرد. كان من بين العلوم التي حاولت الظهور في الحقبة المذكورة علم النص أو «النصيات» (Textology) التي تعنى بـ: «دراسة الشروط العامة لوجود النصوص». لكن هذا العلم لم يفلح في فرض نفسه، ليصبح العلم الجامع لكل العلوم التي تعنى بالنص. لكن بالمقابل نجحت نظرية التفاعل النصي التي كان منطلقها «التناص» في أن تصير محورية في تحليل أي نص، دون أن تكون النظرية الأعم التي يمكن أن تتضمن نظريات متعددة، وذلك بعد أن هيمنت المقولة المشهورة التي تذهب إلى أن «أي نص هو تناص». والمقصود بذلك أنه يتفاعل مع غيره ليكون نصا له مقوماته وخصوصياته التي تجعله منتميا إلى بنية نصية أعلى. وهذا هو التصور الذي اعتمدته في تعاملي مع النص

عندما كنت أشتغل بانفتاح النص الروائي (١٩٨٩)، تمييزا له عن الخطاب.

إن النص تمييزا له عن الخطاب، مثل اللغة في علاقتها بالكلام حسب تمييز دو سوسير، يخضع لأنموط (Prototype) هو بمثابة نموذج أولي أو أعلى يسير عليه كل منتج لأي نص أو خطاب، لأنه ينطلق منه، بوعي أو بغير وعي، لإنتاج خطابه أو نصه. ألا ترى أن القدماء العرب كانوا ينصحون من يريد أن يكون شاعرا أن يحفظ الشعر، وينساه لكي يتمكن من تطوير ملكته، وجعلها قادرة على الإنتاج؟ ومن هذه الصفة يكتسب أي نص إمكانية التفاعل التي تسمح لأي متلق أن يتجاوب معه، وينفعل به، أو يتفاعل معه فهما وتفسيرا وتأويلا. لقد دفعني الانطلاق من هذا «الأنموط»، أو «النصية» التي يمكن ربطها به في محاولة موقعة النص القرآني ضمن بقية النصوص التي أنتجها الإنسان إلى التمييز بين أنموطين، أو نصيتين بينهما تداخل وتفاعل، وفي الوقت نفسه تمايز واختلاف لأنهما معا نتاج علاقة

الإنسان بالعالم الذي يعيش فيه، ويسعى إلى التعبير عن علاقته به، في ضوء تطوره في الزمان.

نميز بين الأنموطين في ضوء ما يمثله أي نص في علاقته برؤيته للعالم، أو تصوره للكون، على اعتبار أن أي نص يتصل بالأنماط التي يتحقق من خلالها، كما وضحت ذلك في «الكلام والخبر» (١٩٩٧). أما الأنموط الأول فأسميته «الكوني»، حيث ينطلق فيه إنتاج النص من تصور محدد للكون، يتجسد من خلال علاقتين عمودية وأفقية. تبدو لنا العمودية في الربط بين الأعلى (السماء) والأسفل (الأرض)، بحيث تتداخل العلاقة بينهما، ويؤثر أحدهما في الآخر، ويتأثر به. أما الأفقية فتبرز لنا من خلال العلاقة بين الحياة (الدنيا)، والموت (الآخرة) حيث يكون الامتداد بينهما بجعل الأولى متصلة بالثانية، وتتحقق بعدها. نجد مقابل هذا الأنموط النص «العالمي» الذي يختلف عن «الكوني» لأنه يتركز على رؤية للعالم تختلف عما نجده في الكوني. إنه يُنتَج في نطاق ما هو مرتبط باليومي والمعيش، بدون

أن تكـون لـه أي صلة بالأعـلى، أو بالحيـاة الأخرى بعد المـوت. إنه رهين العالم الطبيعـي أو الواقعي الذي يعيش فيـه، ويتفاعل مع ما يفرضـه عليه من إكراهات وشروط للحياة.

نـدرج ضمـن النـص الكـوني كل النصـوص التـي أنتجـت في تاريخ البشرية محملة بهذه الرؤية التي تتداخل فيهـا العوالم العلوية والسـفلية، والحيـاة الدنيا والآخرة، والتي تبرز لنا في الأساطير، والملاحم، والكتب المقدسة، والحكايات العجيبة، التي برزت في الحضارات القديمة، ولدى شـعوب مناطـق في إفريقيا، وأمريكا، وأسـتراليا. بل إننـا ندرج في نطاقه الأعمال الأدبيـة المعاصرة المتصلة بعوالمه، مثل روايات الخيال العلمي، والفانتازيا وغيرها. إن ما يجمع بينهـا جميعا هو العلاقة التي تقيمها بين عالمي «الغيب»، من جهة، و«الشهادة»، من جهة أخرى.

أمـا النـص العالمـي فيتجـلى في الاقتصار عـلى كل ما يتصـل بعالم «الشـهادة» فقـط. وبحسـب خصوصية أي

نـص منهما نجد الإنسـان يواجه مصـيره، أو قدره، وهو خائـف، أو متمـرد، خاضـع، أو متحـد، باحثـا لـه عـن الأسـباب التي توفره الحياة كما يريدها، من جهة أولى، أو باحثا عن خلاصه عن طريق الرحلة إلى المجد، أو ممارسة السلطة لبسطها على غيره، أو التغلب على محيطه الطبيعي خدمة لمآربه.

يمكنني في ضـوء هـذا التحديـد التمييز بـين نصيتي الإليـاذة وضـون كيخوطـي. وبذلـك فتحليـل القـرآن الكريم يفرض علي الجواب عن أسئلة الكيف واللماذا في نطاق النص الكوني.

النصية القرآنية بين الكوني والعالمي

كتبت مرة: لماذا لا نقرأ حين نقرأ؟ وكنت أقصد أننا لا نقرأ ما هو مقدم إلينا، ولكننا نبحث فيما نقرأ عما يتفق مع أهوائنا، وعندما لا نجده، نصادر ما نقرأ بدون بذل جهد بسيط لفهم ما قرأناه. لقد تعلمنا من أنظمتنا التلفيق، ولذلك نبادر إلى توزيع الاتهام بلا تثبت أو تريث.

إن السؤالين: كيف؟ ولماذا ندرس القرآن الكريم؟ يفرضان علينا، لأننا نقرأ نصوصا، ونتفاعل معها، وضع النص القرآني في سياق النصوص التي اطلعنا عليها، وتشكلت لدينا من خلالها خلفية نصية بها نقيس، ونحكم، ونقارن بين النصوص، ونعجب ببعضها على حساب غيرها.

أنطلق أولا من سؤال الكيف واللماذا لأن ما يتعلق بتصوري للنص والنصية مقدم في مختلف كتبي. إن

هذين السؤالين حول أي ظاهرة أو نص يتغيران بتغير الزمن لتغير المعارف. لا يمكنني فهم أو تفسير الشعر أو السرد العربيين كما فهما في مختلف الأزمنة السابقة. ويمكن قول الشيء نفسه عن القرآن الكريم، والحديث النبوي. لا بد من الإحاطة والاستفادة مما أنجز تاريخيا من اجتهادات في القراءة والفهم. لكن الوقوف عليها، فقط، إلغاء للعصر المعرفي الذي أعيش فيه والذي أدى إلى تبلور رؤيات وتصورات وأفكار مختلفة عما كان في الماضي. فقراءة القرآن الكريم عند ابن عباس ليست، مثلا، هي قراءة الزمخشري أو ابن حزم الأندلسي. ويمكن لمن يود التأريخ لتفسير القرآن الكريم أن يجعل هذين السؤالين منطلقا، وسيعاين التغييرات التي طرأت مع تغير المعارف في الزمن.

أما موقعة النص القرآني ضمن نظرية محددة للنص كما اشتغلت بها، وأريد تطويرها لأنه ما كان لي لأفكر فيها لولا إقدامي على البحث في سردية القرآن الكريم،

فضرورة أملاها علي اطلاعي على مختلف الكتابات التي تدعي أنه نص مثل غيره، أو يعزى إلى بشر. وهذا هو التصور الذي ينطلق منه الغربيون، والمستشرقون، ومن يسير على منوالهم من بعض الباحثين العرب. كما أن من يؤكدون نسبته إلى الذات الإلهية يظلون يرددون ما يقال دون طرح أسئلة جديدة على قضايا قديمة. ولذلك اعتبرت هذا السؤال مركزيا في تصوري، وجعلته مقدما على طرح سؤال الكيف واللماذا. إنه بدون تدقيق الأنموط، والنصية الكبرى لأي نص يمكن أن يندرج في إطارها، سيظل الاختلاف بيننا في فهم النص، وعدم التمييز بين نص وآخر، وانتماء كل منهما إما إلى جنس أو نوع، بدون تأطيره ضمن بنية نصية كبري مختلفة تستوعب أنماطا متعددة.

إن هذا التمييز انطلاقا من الأنموط دفعني إلى اعتماد معايير للتفريق بين أنموطين مركزيين هما: الكوني والعالمي. وعندما أعطيت مثال هوميروس وسيرفانتيس،

أردت فقط إبراز أن تحليل أي منهما يفرض علينا رؤية كل منهما للعالم في ضوء النصية التي ينتمي إليها، وكيفية قراءتها قديما وحديثا. وبذلك نتجاوز الرؤية السائدة في تحليل النصوص كما هو متداول في النظريات الغربية، والتطبيقات العربية المختلفة. لم يكن قصدي مضاهاة القرآن الكريم بالأساطير وكتب العجائب، وغيرها.

إنني حين أضعه ضمن النصية الكونية، أنطلق من كونه نصا قابلا للقراءة، وأريد من التحليل أن يبرز لي الفروق بين هذه النصوص في تمثل العالم، والقرآن الكريم لأنه سيبدو (بدا) لي مختلفا اختلافا جذريا عنها، وأنا أحلله (سأحلله) باعتباره مادة حكائية (قصة) وخطابا (المستوى النحوي أو التركيب)، ونصا (المستوى الدلالي). وهذا هو التمييز الذي اشتغلت به منذ انفتاح النص الروائي (١٩٨٩)، ووضعت أسسه في تحليل الخطاب. وحتى المقارنة بين القرآن الكريم، وهذه النصوص الكونية المختلفة، وضمنها العهد

القديم والجديد ليست مما يمس بقدسية القرآن الكريم. فالميتا نص القرآني نفسه يقارن النص القرآني بغيره، ويرد على من يدعون كون مصدره بشريا: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (النحل: ١٠٣). إن المقارنة هنا ليست فقط لغوية (أعجمي ـ عربي)، ولكنها تتضمن أيضا ما يتعدى اللغة إلى الشكل، ومقاصد النص الدلالية. نجد في سؤال الكيف، التحدي: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨). ونقول الشيء نفسه عن المحتوى، سؤال اللماذا؟ ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٩). إن نصية القرآن الكريم تتحقق داخل النصية الكونية الكبرى، وهي تعطيه أبعادا مختلفة عن كل النصوص المندرجة ضمنها، بل إنها تختلف حتى عن النص العالمي

لأن النص القرآني لم يقف عند حد الكونية بل تعداها إلى العالمية، باعتبارهما معا رؤيتين متكاملتين للعالم والكون: فعالم الغيب والشهـادة متآزران ومتآلفان.

لقد اعتبرت سؤال موقعة النص القرآني ضمن غيره من النصوص أساسيا ومركزيا، بل هو المدخل الطبيعي لممارسة تحليله تحليلا ملائما. كما أعتبره في الوقت نفسه دافعا إلى تطوير تصوري للنص، والتمييز بين النصوص، ليس فقط باعتماد مقولات مثل الجنس، والنوع، ولكن بإدراج النمط أيضا.

حين لا تتأطر هذه التمييزات، ليس فقط ضمن الأنماط، ولكن ضمن التمييز بين الأنموطين المركزيين، أو النصيتين الكبريين أيضا، ستجعلنا نتعامل مع جيلجاميش على أنها «ملحمة» بصفتها نوعا سرديا لا تختلف عن أي نص سردي إلا بسبب انتمائها إلى نوع معروف. أما الانطلاق من النصية الكونية فتضعنا أمام ضرورة وضعها في سياق يتجاوز النوع إلى النمط.

لقد اختفت الملحمة بصفتها نوعا، لكن النمط الخاص بالعلاقة بين السرد والتجربة الإنسانية موجود دائما (الكلام والخبر). وللتدليل على ذلك أعتبر رواية الخيال العلمي والفنتازيا، باعتبارهما نوعين سرديين جديدين في العصر الحديث مثلا، يندرجان في نطاق النصية الكونية، مع فارق جوهري يتصل بالعصر. فما كان آلهة، أو طوطما أو ما يتصل بالخارق (العالم العلوي) في النصوص السردية القديمة، صار «كائنات فضائية ذكية» (Aliens) تريد غزو الأرض والسيطرة عليها. لقد تغير النوع، لكن النمط واحد، اتخذ مواصفات جديدة تتصل بالعصر التكنولوجي الذي نعيش فيه. وسنجد أن ما تشترك فيه النصوص السردية حسب الأنموط الكوني مختلفة عن نظيرتها المتصلة بالأنموط العالمي على مستويات متعددة. وفي هذا نافذة لمن يريد توسيعها، والبحث في إطارها.

أما الأنموط العالمي فجعلته مقتصرا على ما يتصل بتجربة الإنسان مع العالم الذي يعيش فيها في مواجهة أخيه ـ عدوه الإنسان، أو الطبيعة، أو الواقع. ومقارنة بسيطة بين رواية بوليسية مثلا، ورواية الخيال العلمي الجديدة التي ظهرت مع الثورة الجديدة للمعلومات والتواصل، تبين لنا الفرق الكبير بينهما، وهو الفرق نفسه الذي نجده أيضا داخل كل أنموط لاختلاف الأنواع التي يندرج تحتها. فالكتاب المقدس ليس القرآن الكريم رغم اندراجهما معا ضمن الأنموط الكوني، ورغم تشابه العوالم الطبيعية والفوق طبيعية بينهما. وقس على ذلك.

يقودنا الفرق بين الكوني والعالمي إلى البحث فيما ينضوي تحت كل منهما من أنواع فرعية وفق معايير تجعل بينها اختلافات رغم الائتلاف العام بينها. ولا ينسينا هذا الأساس المنطلق منه حول الأنموط المحوري (البنية النصية الكبرى) أن أيا من الأنموطين يمكن أن نجد فيها

ما نـراه في الأنموط المقابل، لكن الهيمنـة تكون لما يجعلنا نميز بينهما.

لقـد جعلت القـرآن الكريـم نص الانطـلاق لتطوير المفاهيـم التـي ذكـرت اسـتنباطا لا اسـتقراء. ولذلـك كان أسـاسَ التمييـز بـين الأنموطـين بناء على مـا يقدمه لنـا بخصوص ما يتشـكل منه الأنموط الكـوني في كليته وشـموليته. إن فيه تأكيدا على إنسـانية هذا الأنموط، من خـلال ﴿ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾، (الإسراء: ١٥)، و﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾ (غافر:٧٨). وفي هـذا تبـدو لنـا العلاقـة بـين العلـوي والسـفلي، والدنيوي والأخروي في الكثير من النصوص مـن حضـارات قديمـة تتجـلى مـن خـلال النصـوص السرديـة: الحكايـات والأسـاطير والملاحـم، والكتـب المقدسة. لكن القرآن الكريم يجعل الأنموطين متكاملين

للرابط الوثيق الذي يقيمه بين الغيب والشهادة، وهو ما لا نجده في غيره من النصوص بالطريقة التي يختص بها، مقارنة مثلاً مع الكتاب المقدس. ويمكننا إيضاح الفرق بين الأنموطين بالحديث عن الشعر العربي، والقرآن الكريم.

الشعر والقرآن الكريم

كان العرب أهل فصاحة ولسن. ومما قيل قديما يبين أن الحكمة نزلت من السماء على ثلاثة أقوام: أدمغة اليونان، وأنامل الصين، وألسنة العرب. يبدو ذلك في احتلال الكلمة والشعر مكانة خاصة في نفوس العرب. لقد كان الشعر سجل أيامهم وصراعاتهم ونمط حياتهم اليومية. تفرح القبيلة حين ينبغ فيها شاعر، لأنها تعتبره ناقل مفاخرها، ومسجل بطولاتها وتاريخها، وصوتها المنافح عنها في المحافل. لذلك كانت الذاكرة الجماعية تحفظ هذا الشعر، وتتناقله الأجيال، وكان لكل شاعر راو ينشر أقواله، ويروج لها. كما كانت، إلى جانب ملكة الحفظ، القدرة على التمييز بين جيد الشعر ورديئه مما يدل على المكانة التي كان يحتلها في نفوسهم. ولما كانت الكتابة قليلة الانتشار قبل الإسلام لم يصلنا ولو ديوان شعري واحد مخطوط لأي شاعر من الشعراء

الذين وصلتنا أشعارهم وأخبارهم. وحتى المعلقات التي يذكر أنها كانت تعلق في أستار الكعبة لم يبق لأي منها أثر.

عندما بدأ القرآن ينزل على الرسول ﷺ، أصيب العرب بـ«الصدمة الكلامية». حاولوا مقارنته بما بين أيديهم من الشعر، ومن أجناس الكلام التي كانت متداولة بينهم، فلم يجدوه شعرا، ولا سجع كهان، وإن اتهموا الرسول ﷺ تارة بأنه شاعر، وأخرى بكونه ساحرا أو مجنونا. وفي كل هذا ما يدل على أن الآيات والسور التي كانوا يسمعونها كانت بالنسبة إليهم كلاما مختلفا عما اعتادوا عليه. هذا على مستوى لغة القرآن وبلاغته. أما على مستوى محتواه، ومضامينه فقد رأوا فيها ما يعرفونه من أخبار الأولين (الأساطير)، وما هو من تراث أهل الكتاب، فزعموا أن الرسول يعلمه أحد الرهبان، وأنه ينقل كلامه إليهم. ومع ذيوع الدعوة، وانتشارها، بدأت الصدمة الكلامية تقل مع الزمن، وباتوا يقرون أنهم أمام

كلام مفارق لما بين أيديهم، وأنه لا يمكن أن يكون إلا من عند الله. بدأ الشعراء، وهم مبدعو الكلام «الأرقى» يعترفون بأن القرآن أسمى من كلامهم مجتمعين، وأنه يتحداهم أجمعين. فهذا لبيد العامري يخرسه القرآن الكريم نهائيا، ويقول بأنه يكتفي بسورة البقرة. وذاك الأعشى يفكر في الدخول في الإسلام، ولا يحول بينه وبينه إلا منع الخمر. وهذا حسان يوظف شعره دفاعا عن الإسلام، ويستمر القرآن الكريم فارضا منزلته بين المسلمين.

أتعجب الآن حين أقرأ من بين ما يكتب عن القرآن الكريم من لدن مستشرقين ومستعربين وعرب، وما يتداول في بعض المواقع الاجتماعية من أن فيه أخطاء نحوية وأخرى لغوية. فأين لمن يدعي مثل هذا الكلام الملكة اللغوية والجمالية التي كانت لدى العرب إبان نزوله؟ والأعجب أن من بين من يروج لمثل هذه الادعاءات يتحدث عربية سقيمة؟ ألم يكن أهل العربية،

زمن النبوة، أقدر من اكتشاف ما يُدّعى بخصوص القرآن، وهم الذين كانوا ينتقدون الشعراء حين يقعون في بعض الاستعمالات التي تخالف العربية؟

تحقق للقرآن الكريم ما لم يتحقق للشعر رغم المكانة التي كانت له عند العرب، فكان كل ما يسمعونه عن الرسول ﷺ يحفظونه، تقربا إلى الله، من جهة، ومن جهة أخرى لأدائه في صلواتهم، وثالثا استمتاعا بجماليته الاستثنائية. وكان جمع القرآن والاتفاق على مصحف عثمان دليلا على الإجماع على صحة روايته. ورغم كل ما يقال عن المصاحف المختلفة، وما عرفته من زيادة ونقصان، واختلاف، نرى أن كل ما كان متداولا منذ البعثة مرورا بالفتوحات هو القرآن الموجود حاليا بقراءاته المختلفة. وما تيسر للقرآن الكريم لم يتحقق على الوجه نفسه بالمقارنة مع جمع الشعر وتدوينه. فلم يصلنا، على نحو ما يؤكد أبو عمرو بن العلاء، من الشعر إلا أقله. وما وصلنا منه أثيرت ببعضه قضية النحل، ولذلك نجد

بعض الاختلافات في رواية بعض الأبيات، أو القصائد، ونسبتها إلى قائلها مما يدل على أن عملية الجمع والتدوين كان العرب يحرصون فيها على التحري والتدقيق.

مع تطور الدولة الإسلامية، ظهرت علوم تعنى باللغة العربية وأجناس كلامها، ونال الشعر المكانة الأولى من الاهتمام بالقياس إلى الخطابة، أو غيرها من الخطابات النثرية. فظهرت الصنعة النصية التي تتركز على جمع أشعار الشعراء، أو صناعة المختارات، من جهة أولى، أو على تصنيف الشعراء حسب مواقعهم إلى طبقات، من جهة ثانية. وكانت الدراسة بعد ذلك التي تنهض على أساس النقد، والتمييز بين الجيد والرديء، أو الموازنة بين الشعراء، أو شرح الأبيات. فكان النحو البلاغة والنقد من أهم ما أنتجه العرب بخصوص الشعر.

ما كان لهذه العلوم والمعارف الخاصة بالكلام العربي لتتحقق لولا المكانة التي صارت للقرآن الكريم في النفوس. لقد كان الحافزَ لبروز كل العلوم التي ستتطور

مـع الزمـن. ويبدو لنـا ذلك بصـورة خاصة مـع «علوم القرآن». لقد أدى السـعي إلى فهم القرآن والإحاطة بكل مـا يتصل به مـن أمور تتعلق بالدنيـا والدين إلى بروزها، والجهود الجبارة التي بذلت خير دليل على ذلك.

إننـا في الانتقال من الشـعر (كلام بـشري) إلى القرآن الكريـم (كلام الله)، ننتقـل مـن خطـاب خـاص بأمة أو مـن يعرف العربية إلى دعوة إنسـانية شـاملة لأي إنسـان في كل زمان ومكان. ولما كان الشـعر، تبعا لذلك، يندرج في نطـاق الأنموط العالمي، ظـل القرآن الكريم ذا أنموط كـوني، وعالمـي أيضـا مختلـف عـما عـداه مـن النصيات الكبرى. ويبدو لنا الفرق أيضا بين الأنموطين في الطريقة التي بني بها القرآن الكريم.

بناءُ النص القرآني ومعماريتُه

نزل القرآن الكريم منجما، أي متفرقا، ليتلاءم مع الظروف والمناسبات التي كان ينزل فيها إلى الرسول ﷺ. وكان عبارة عن آيات بسيطة أو مركبة، أو سور قصيرة. كان الصحابة يحفظون ما ينزل عن ظهر قلب. جمع القرآن بعد ذلك في المصحف في ضوء ما كان الرسول ﷺ يوصي به أصحابه من حيث ترتيب آياته وسوره. وعندما نتحدث عن بناء النص القرآني، فإننا نقصد بذلك معماريته النصية التي يتحدد من خلالها ترتيبه، ونوعيته الجنسية. يعود مصطلح «المعمارية» النصية إلى جيرار جنيت (١٩٧٩)، ليعني به البناء الذي تتحدد من خلاله جنسية النص أو نوعيته. ولذلك كان هذا الكتاب خالصا للأجناس الأدبية. ولا علاقة لهذا المصطلح بـ«جامع النص» كما ترجم إلى العربية. إن هناك

فرقا بين السابقتين أرشي (architexte) التي تتصل بالبناء أو المعمار، وأركي (arché) التي تعني الرئيس أو العالي، ولذلك تترجم (archétype) بالأنماط العليا.

اتخذ بناء النص القرآني معمارية خاصة تجعله من حيث كونه جنسا كلاميا مختلفا عن كل أجناس الكلام العربي، وإن كان يتضمن بعضها، أو بعض أنواع الكلام البشري بصفة عامة. ولكي نحدد معماريته النصية لا بد لنا من الوقوف على بنائه لأنه هو ما يمكننا من تدقيقها. بذل العلماء المسلمون مجهودات كثيرة لضبط بنائه، وتحديده في ضوء الترتيب الذي عرفه مع المصحف، وكانت لهم في ذلك اجتهادات كثيرة. فاقترحوا لذلك عدة تقسيمات تتصل بمادته وأنواعها، وأجزائه وتفريعاتها.

نجد من بين هذه التقسيمات ما كان متوقفا على الكم من حيث الطول والقصر، انطلاقا من التمييز بين السور، وما تتضمنه من آيات. مع التأكيد أن مصطلحي السورة والآية من صميم التمييز الذي يبرز من خلال الميتا نص

القرآني: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النور: ١)

فميزوا أولا بين: الطُّوَل، وهي سبع سور. وثانيا: المئون وهي تلي الطول، وتزيد آياتها عن مائة أو تقاربها. وثالثا: المثاني، وهي ما ولي المئين، وهي السور التي تقارب آياتها المائة. ورابعا: المُفصل، وهو ما ولي المثاني من قصار السور. وسمي بذلك لكثرة الفواصل بين السور بالبسملة. ولما كانت سور المفصل كثيرة العدد، قسمت بدورها إلى: طوال، وأوساط، وقصار.

كما نجد تقسيما آخر من حيث عدد الآيات، وما تتضمنه من اتفاق واختلاف إجمالا و تفصيلا. ورأوها ثلاثة أقسام: قسم لم يختلف فيه لا من حيث الإجمال أو التفصيل. وثان، اختلف فيه تفصيلا لا إجمالا، وثالث، اختلف فيه إجمالا وتفصيلا. في ضوء هذا التقسيم أنطلق من التمييز الأول لغايات خاصة، سأبينها لاحقا، إلى ثلاثة أقسام: السور الطويلة، والمتوسطة، والقصيرة. فالطويلة

هـي التي تضم الطوال والمئون. وتشـتمل المتوسـطة على المثاني والطوال من المفصل. وتقتصر السور القصيرة على الأوساط والقصار من المفصل.

إلى جانـب هـذا التقسـيم السـوري نجد آخـر يتصل بتوزيـع كتلـة المـادة النصيـة بغـض النظـر عـن السـور والآيات تقسيما مبنيا على عدد الحروف. لقد قُسم القرآن الكريـم إلى ثلاثين جزءا، وكل جـزء إلى حزبين. وبذلك كان مجمـوع أحـزاب القـرآن الكريم، سـتين حزبـا. وما يـزال بعض المغاربـة إلى اليـوم يحلفون بـ: «وحق سـتين حزبـا». وأرى أن للتقسـيم الأخـير غايـات تتصـل، من جهـة، بالتعبـد في الصلـوات، وقراءة حزبـين بعد صلاة المغرب، والفجر، ليختم القرآن الكريم في شهر. وكذلك الأمـر في صـلاة التراويح. كما أنه يتصـل من جهة أخرى بأهداف تربويـة تتعلق بتحفيظ القـرآن الكريم للأطفال حيـث كان الطفل يتدرج في حفظ كل حزب كاملا، قبل أن ينتقـل إلى حـزب آخـر. ومتى تقـدم الطالب في حفظ

القرآن صار بإمكانه نقل الثمن أو الربع أو النصف إلى لوحته بحسب إمكاناته في التحصيل والحفظ. ومعنى ذلك أن الحزب الواحد كان يقسم بدوره، في ذاته، إلى سبعة أقسام متوازنة تقريبا من حيث عدد الكلمات: ثمن فربع، فثمن فنصف. فثمن وربع وثمن.

وانطلاقا من الحزب أيضا، نجد تقسيما آخر، حيث تُضَم مجموعة من الأحزاب، في علاقتها ببعضها، في ربع مما ورد في القرآن الكريم. فكانت الحصيلة أربعة أرباع. يضم الربع الأول منها ست سور. والربع الثاني: اثنتا عشرة سورة. والثالث منها يستوعب سبع عشرة سورة، والأخير تسعا وسبعين سورة.

إذا كان تقسيم القرآن الكريم إلى سور وأجزاء وأحزاب وأرباع، من اجتهادات العلماء، فإن مما يروى أن التحزيب المشهور عن الصحابة هو ما يرويه أوس ابن حذيفة، قال: «سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزبون القرآن؟ قالوا: ثلاث (سور)، وخمس، وسبع،

وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده». وكان حزب المفصل يمتد من سورة «ق»، إلى سورة الناس.

يمكننا تصنيف كل هذه التقسيمات إلى قسمين كبيرين: التحزيب والتسوير. يقوم الأول منهما على التوازن بين الأقسام، وهو ما نعثر عليه في التقسيم إلى أجزاء، وأحزاب وأرباع. أما الثاني فمبني على التفاوت بين الطول والقصر انطلاقا من السور. ولكل من هذين القسمين الكبيرين أهداف مرتجاة. فالبعد التعبدي والتربوي واضح في «التحزيب». وإذا كان البعد التعبدي واردا أيضا في «التسوير»، فإن بعدا آخر كان وراءه، وهو ما نجده في تعامل العلماء المسلمين مع القرآن الكريم من خلال التفسير حيث ظل قائما على «وحدة» السورة، وعلى أن لكل سورة بنية خاصة بها.

إن لكل هذه التقسيمات غايات ومقاصد، وكلها تدل دلالة قوية على خصوصية النص القرآني من حيث بناؤه ومعماريته. ونشير في هذا السياق إلى اختلافه، من

هذه الناحية، عن أجناس الكلام العربي وأنواعه، بل واختلافه حتى عن الكتب المنزلة على هذا المستوى، بل وعلى كل النصوص التي أنتجها الإنسان. يعود هذا إلى نزوله منجما، وعند جمعه في مصحف كانت هناك عدة إمكانيات لترتيبه وتنظيمه. ولما كان الجمع مؤسسا على التوقيف النبوي، من جهة، وتقسيمه على الاجتهادات المختلفة، من جهة ثانية أعطانا ذلك إمكانات متعددة للتعامل معه من جهة بنائه ومعماريته.

يسمح لنا التقسيم الذي ارتضيناه إلى سور طويلة، ومتوسطة، وقصيرة، باختصار الأقسام إلى قسمين متقاطبين، وبينهما قسم وسط. وهذا التقسيم الثلاثي يتيح لنا تدقيق البحث فيما يختلف به كل قسم عن غيره، وأين يأتلف معه على مستويات تتصل بالموضوعات، والأساليب، واللغات، من جهة. كما أنه يتيح لنا إمكانية التوقف على ما بين الآيات داخل كل قسم، وما تتضمنه من اتفاق واختلاف من حيث الإجمال أو التفصيل، وما

يقدم منها مطولا، أو مختصرا، من جهة ثانية. ومن جهة ثالثة تدقيق النظر في المتواتر والتكراري بين الآيات في ضوء كل قسم من الأقسام الثلاثة. ويتيح لنا ذلك أيضا إمكانيات مهمة للمقارنة بين أقسام السور، وما تتضمنه آياتها في علاقتها بالسياقات المختلفة، ومختلف التمييزات التي وقف عليها المسلمون سواء اتصلت بالزمان (الليلي ـ النهاري)، أو المكان (المكي ـ المدني)، وما شابه ذلك.

إلى جانب كل هذه الإمكانيات التي يسمح لنا بها التقسيم الثلاثي، يمكننا أن نضيف ما يتعلق بضبط البنيات النصية داخل كل قسم، وتحديد الصيغ الخطابية التي تختلف بطبيعة الحال بحسب الطول والقصر، ويكون ذلك تمهيدا لدراسة أجناس الكلام القرآني، وأنواعه، وأنماطه. لكن هذه التقسيمات المتعددة إذا لم نعمل على استجماعها في ناظم كلي يستوعبها نظل نتعامل مع القرآن الكريم من خلال قراءات جزئية وتجزيئية. فما الذي ينظم كل السور والآيات القرآنية، ويجعلها تنتظم في نطاقه؟

بؤرة النص القرآني

إن أي تقسيم للقرآن الكريم، من حيث بناؤه المعطى، كما هو في المصحف، أو الموضوع حسب اختيار الشارح أو المفسر أو المؤول إذا لم ينطلق من تحديد البؤرة الناظمة للنص القرآني تظل مسارات عمله مفتوحة وغير مقيدة بما يمكن أن تتيحه لنا إمكانية ضبط تلك البؤرة التي عليها مدار كل ما يتعلق به النص، أو يوسعه، أو يضيفه إلى ما تفرق ليجمعه في بنية كبرى جامعة يتميز بها النص القرآني عن غيره من النصوص.

أوقفتُ «القرآنية»، باعتبارها الموضوع الذي انطلقنا منه، فيما اختزلته في البنية النصية الكبرى التي نجدها في جملة واحدة، تجمعها آية مركزية عليها مدار النص بكامله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات ٥٦). ولذلك فدلالتها تحضر بأشكال وصيغ متعددة في كل سورة أو آية من القرآن الكريم. إن الآيات الدالة على

الخلـق، وعلاقته بـالعبودية محور النص القرآني، وعليها مـداره. يبدو لنا في كون جذر كلمـة (خ.ل.ق) يتكرر في القرآن الكريم ثمانين مرة. ولا تكاد سـورة تخلو من كلمة الخلـق أو مـا يـدور في حقلهـا الـدلالي (جعلنا، أنشـأنا، مهـدتُ...)، أو يتصـل بهـا مـن أفعـال خاصـة بالذات الإلهية، والتي تعني: «الإنتاج» على غير نموذج، أو مثال. إنها خالصة لله، وأما العبودية فخاصة بالإنسان. وهي إلى جانـب تأكيدها ذاتية المتكلـم (الله)، تتضمن بؤرة النص القرآني، وكل الآيات والسور تدور في نطاقها، ولا تخرج أي آيـة عنها. فلولا الخلق لمـا كان لأي كائن ليكون. إنها بمثابة المجـال المغناطيسي الذي يجتذبهـا، ويجعلها بذلك مترابطة مع غيرها في دورة لا نهائية.

تتحقق كلمـة «الخالق» في القرآن الكريم بكل أسـماء الله، وصفاتـه، وأفعالـه، وأقوالـه. أما ارتباطهـا بعبودية الإنسان فبسـبب ما خص الله به الإنسان من مقومات لا توجـد في غيره. وإلا فـالله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ

وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (الإسراء: ٤٤). لذلك نرى أن صلة الخلق بالعبودية، وهي محور البنية النصية الكبرى، قابلة لأن تتجسد من خلال بؤرة مركزية يتحدد من خلالها هذا المحور. نجد هذه البؤرة في إحدى الصفات المتصلة بالخالق، وهي العليم. لقد قرن الخالق العبودية بالعلم، وخص الإنسان بمُقوِّم، أو ميزة قبول التعلم (امتلاك العلم)، ولذلك بعث الأنبياء والرسل. وليس القرآن الكريم وهو يدور حول هذه البؤرة النصية، سوى «تعليم» الإنسان ما به تتحقق إنسانيته. نعاين ذلك بجلاء في كون أولى الآيات قد ربطت القراءة بالخلق: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ (العلق: ١). وجعلت القراءة والتعليم علما من الله، وبه يتوجه إلى الإنسان: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق ٣: ٥). وتبعا لذلك نعاين أن مختلف الآيات القرآنية تدور بشكل أو بآخر في فلك هذه البؤرة النصية، وقد

اتصلت بالخالق وبمختلف صفاته، وكل أقواله وأفعاله في القرآن الكريم.

سنتوقف على علاقة الخالق بالعبادة والعلم من خلال بعض الآيات، ويمكننا تعميم ذلك على أي من صفات الخالق لنقف على أن كل الآيات القرآنية تدور في الفلك نفسه، وهي تتصادى، وتترابط، وتلتقي حول تلك البؤرة المركزية. ويمكننا توزيع الآيات إلى خمس دوائر تتصل:

ـ أولاهما بتجسيد العلاقة بين الخلق والتعليم، أو العلم: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾(الرحمن ١ : ٣)، فالذي خلق الإنسان هو من علمه عن طريق القرآن الذي أنزله على رسوله ﷺ.

ـ نجد في الدائرة الثانية الرد على المتشككين الذين ينكرون علاقة القرآن بالخلق والتعليم، بتأكيد أن الله لم يعلم رسوله الشعر: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾ (يس: ٦٩)، أو ادعاء أن من

يعلم الرسول بشر: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾(النحل: ١٠٣)، أو التولي عن الرسول بزعم أنه هناك من يعلمه من البشر: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴾ (الدخان: ١٤).

أما الدائرة الثالثة فتبدو في الإشارة إلى من يتوجهون بالعبادة إلى غير الخالق بسبب عدم امتلاكهم العلم الذي يقيهم ما يتخبطون فيه من جهل: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾(الحج: ٧١)، ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (الزخرف: ٢٠).

ـ وتبدو لنا الدائرة الرابعة فيمن يدَّعون امتلاك علم مبني على الظن، ويزعمون أنهم على الحقيقة: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (الجاثية: ٢٤).

ـ وأخيرا، نجد التحدي القرآني للذين يشركون بالخالق، ولا يعبدونه، مطالبا إياهم بالكشف عن «العلم»

الصادق الذي يبنون عليه عدم إيمانهم بما جاء به القرآن الكريم: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (الأحقاف: ٤).

نعاين من خلال مفردات: الخلق، العبادة، العلم، في القرآن الكريم، والتي يمكن استجماعها في ربط الخالق بالعليم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (الحجر: ٨٦)، وفي: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (يس: ٨١)، كيف أنها جاءت موزعة، ومتفرقة على ما لا يحصى من الآيات في مختلف السور، وتدور كلها في الفلك نفسه. ولو انطلقنا من الخالق والعبادة، بالنظر إلى الحقول الدلالية المختلفة والمتصلة بهما سنجد البنيات النصية الجزئية تترابط وتدور كلها في نطاق البؤرة عينها. وهذا مما لم يتحقق في أي نص من النصوص البشرية. وفي ذلك، تأكيد، مرة أخرى، على أن ذلك من سمات خصوصية

«القرآنية» التي ينطبع بها النص القرآني، والتي بواسطتها يختلف عن سواه من النصوص.

نستنتج من خلال الدوائر الخمس التي رصدناها من خلال عدة آيات في سور مختلفات أن هناك روابط متينة تشدها إلى بعضها البعض، مما يؤكد لنا ما قلناه عن خاصية «الترابط النصي» في القرآن الكريم.

الترابط النصي القرآني

يتميز النص القرآني عن غيره من النصوص بأنه غير خطي. وتسمح هذه اللاخطية لأي قارئ بأن يختار بعض السور والآيات أو ينتقل بينها، فيجد نفسه منغمساً في عوالم النص نفسها، فيدرك مراميه ومقاصده، وفي الوقت نفسه يستمتع بأساليبه وبلاغته. وفي هذا خير دليل على ترابط مكوناته وتفاعل بعضها مع بعضها الآخر. ولا نجد هذه السمة إلا في «النص المترابط» الذي ظهر مع الثورة الرقمية حيث فضاء الشاشة لا يسمح بما يتيحه النص الورقي من خطية القراءة. ولذلك فالنص المترابط مبني على «عُقد» (بنيات نصية)، يؤشر على أحد مكوناتها بـ«روابط» يتيح النقر عليه الانتقال إلى صفحة أخرى غير التي كان القارئ متوقفاً عليها. وهكذا دواليك يكون التحرك في النص بكيفية لاخطيَّة.

لكن النص القرآني ليس مرقوما بالكيفية التي تتحقق مع النص الرقمي عندما تكون الروابط مُعيَّنة بلون مختلف، تغرينا بالنقر عليها للانتقال في جسد النص، والتحرك بين عوالمه. إن النص القرآني خطيٌّ كتابة، وكل سورة ذات بداية ونهاية. ولذلك نعتبر الترابط النصي القرآني يتجلى من خلال كتلته النصية التي نجد أيا منها، وفي أية سورة، يحيل على ما تتضمنه أية سورة أخرى، بدون أن تكون معيَّنة كما هو متحقق في النص الرقمي. وأي قارئ كيفما كان مستواه سيجد نفسه أمام تواتر كلمات، وتكرار تعابير، سواء داخل السورة نفسها، أو بين السور المختلفة. ولما كنا نطرح مسألة كتابة النص القرآني في تساوق مع إكراهات المخطوط والمطبوع، نرى أن تحويله إلى المرقوم يتيح لنا إمكانية قراءة جديدة تسمح للمتدبر، والمحلل معا أن يعاين ما يزخر به النص القرآني بما لا نجده في غيره من النصوص.

تبين لي منذ أن بدأت أتعامل مع الثقافة الرقمية أن

القرآن الكريم نص مترابط بامتياز لأن من بين خصائصه المميزة كونه مبنيا على «التفاعل النصي الذاتي». ولعل الإقدام على ترقيمه وفق متطلبات النص المترابط، وبتقنيات عالية، وبوعي تام بمتطلبات وضع الروابط بكيفية مضبوطة ومدروسة بإحكام، يكشف لنا ذلك بجلاء. اخترت للتمثيل فقط كلمة «التقوى»، وما يتصل بها اشتقاقيا فوجدت الكلمة تتكرر ست مرات. أما التنويعات عليها، فإنها أتت على النحو التالي: بالتقوى (١ مرة واحدة)، والتقوى (مرتان)، واتقى (٧ مرات، ويتقون (١٧ مرة)، واتقوا (٨٤ مرة). نلاحظ على مستوى التكرار أن كلمة «التقوى» منفصلة أو متصلة بالواو أو بالباء تواترت تسع مرات، واتقى في الماضي سبع مرات فقط، وفي المضارع (الدال على الديمومة في كل الأزمنة) سبع عشرة مرة. أما بالأمر فوصلت الكلمة إلى أربع وثمانين مرة. ويمكننا فقط من خلال هذا التواتر معاينة كيف تستعمل الكلمة الواحدة في

سور وآيات متعددة بصور متنوعة، ولتحقيق غايات متعددة. ومن خلال تأمل كل الصُّور التي جاءت عليها نجد أن الأمر بالتقوى يحتل الحيز الأكبر منها. لقد جاء الإتيان بالمصدر لإثبات أهميته في الحياة بالنسبة للإنسان. فالتقوى خير الزاد: ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(البقرة: ١٩٧)، وهي خير اللباس: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾(الأعراف: ٢٦)، وأحق أساس يقام عليه المسجد: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ (التوبة: ١٠٨). وفي الأضحية لا ينال الله لحومها، ولكن التقوى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(الحج: ٣٧). وهي أحق كلمة ألزمها الله بها المؤمنين: ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ

عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الفتح: ٢٦).
وأخيرا: ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ (المدثر: ٥٦).

إن ما رأيناه في بناء النص، ومعماريته وبؤرته يتجلى لنا هنا بوضوح. وما لاحظناه من خلال العلاقة بين الخلق والعبادة والتعليم، يتراءى بجلاء أكثر، ونحن نتخذ «التقوى» موضوعا للتمثيل. ولو أخذنا أيا من الكلمات، أو الآيات مثالا للتوسيع لوقفنا على التفاعل والترابط بين كل كلمة في القرآن الكريم بما يتصل بها في أي سورة. وكل ذلك يمكننا من معاينة كون «القرآنية» خاصية مميزة لا نجدها، ولن نجدها في أي نص من النصوص البشرية.

خاتمة: على سبيل التمهيد

إن القضايا والأسئلة المجملة والمطروحة في هذا المدخل، وهي تحدد من خلال إطار تصوري يدور في فلك الاختصاص المنطلق منه (السرديات) في تحليل القراءة والكتابة والنص من خلال «القرآنية» باعتبارها الخاصية المميزة للقرآن الكريم، عن غيره من النصوص، بالوقوف عليها على مستوى القصة والخطاب والنص، نسأل الله أن يوفقنا في بسطها وتفصيلها في كتابين أحدهما حول: تحليل النص القرآني، من خلال: النص والميتانص القرآني، والبناء النصي، والترابط النصي ـ أما الثاني فتحت عنوان: «تحليل الخطاب القرآني»، حيث يكون التركيز على الزمن، وصيغ الخطاب، والرؤيات المختلفة، في أبعادها الجمالية والدلالية. والله ولي التوفيق

الفهرس

دعاء ٥
مقدمة ٧

١ ـ السرديات

سرديات القرآن الكريم ١١
«القرآنية» ١٩
مميزات «القرآنية» ٢٥
الزمنية القرآنية ٣٥

٢ـ القراءة

كلام الله.. قول النبي في القرآن الكريم ٤٣
من هم مؤلفو القرآن؟ ٥١
اقرأ... سنقرئك ٥٩

٣ـ الكتابة

أسئلة الكتابة ٦٩

الكتابة القرآنية والإيماء النصي ٧٥
القراءات القرآنية وكتاباتها ٨١
تجارب في كتابة سورة الفاتحة ٨٩
نماذج من الكتابة الجدولية ٩٦

٤ـ النص

القرآن الكريم والنص الكوني ١١٥
النصية القرآنية بين الكوني والعالمي ١٢١
الشعر والقرآن الكريم ١٣١
بناء النص القرآني ومعماريته ١٣٧
بؤرة النص القرآني ١٤٥
الترابط النصي القرآني ١٥٢
خاتمة: على سبيل التمهيد ١٥٧